)X(السخرية في النثر العربي)X(

" من الجاهلية حتى القرن الرابع "

منح الصلح

وهي رسالة قدمت الى الدائرة العربية في جامعة بيروت الاميركية تتمة للشروط المطلوبة لنيل شهادة استاذ علوم .

(نيسان سنة ١٩٥٣)

....

مقدمة

كان من اغلى اماني ، منذ اول عهدي بالتذوق الادبي والدراسة الادبية ، ان اعدّ رسالة في الاديب العربي الكبير المرحوم عمر فاخوري . وما كدت احزم امري على متابعة دراستي العليا في هذه الجامعة ، حتى اتجه نظري الى عمر فاخوري ليكون موضوع بحثي هذا . وباشرت في تحضير المادة التي يتطلبها عملي . غير انني وجدت ، مع تقدمي في البحث ، ان التراث الفني الادبي الذي ينتسب اليه هذا الاديب الكبير ، واعني به مجموعة الادب الساخر عند العرب ، لم يحظ ، على بالغ اهميته وجماله ، بما يستحق من اهتمام الباحثين .

ووجدت كذلك ان العدد الاكبر من المفاهيم والمصطلحات المتصلة بهذا النوع من الدراسات ما يزال في حاجة ماسة الى الايضاح . ومن هنا ولد في نفسي عزم اخر على القيام بدراسة منهجية تتناول ، من جهة ، جلاء بعض هذه المصطلحات ، كما تتناول ، من جهة ثانية ، الكشف عن اصول التراث المذكور في ادبنا القديم .

ولما كان من المتعذر دراسة السخر الفني في النثر والشعر العربيين معا ، وكان من المتعذر كذلك ان يشمل البحث النثر العربي القديم كله ، فقد رأيت ان احدد بحثي من حيث الموضوع بالنثر فقط ، ومن حيث الزمن بالفترة الممتدة من الجاهلية حتى القرن الرابع .

ويجد القارئ باطلاعه على الرسالة انني قد قسمت البحث فيها الى فصول ستة :

الفصل الاول في تحديد اللفظ ،
والفصل الثاني في اصول السخر ،
والفصل الثالث في نضج السخر ،
والفصل الرابع في الجاحظ ،
والفصل الخامس في المقامات ،
والفصل السادس في الرسائل ،
وجعلت للفصل السادس ملحقا خاصا برسالة التوابع والزوابع .

وواضح من تقسيم الموضوع ان الاديب الوحيد الذى تناوله البحث باعتباره اديبا ساخرا هو الجاحظ .

وتناولت فصول الرسالة الاخرى ، ما عدا الفصل الاول ، النثر نفسه ، ولم تتناول الادباء . والسبب في ذلك بسيط ، فالادباء الساخرون ، فيما خلا الجاحظ ، نادرون ، لكن الاثار الساخرة متوافرة .

اما العامل الذى دفعنا الى خص رسالة التوابع والزوابع بملحق تتميز به عن غيرها من الرسائل ، فهو شعورنا انها الى القصة او الرواية اقرب منها الرسالة بالمعنى التقليدى ، وان سميت بهذا الاسم .

هذا هو النهج الذى نهجته في رسالتى هذه . وذلك هو الهدف الذى استهدفته . واني لازجي الشكر على كل ما في هذه الاطروحة من خير لاستاذىّ الكريمين جبرائيل جبور واسحق موسى الحسينى اللذين قاما على ارشادى في عملي اثناء تحضيرى هذه الرسالة .

منح الصلح



الفصـــل الاولـــ

تحـديد اللفـظ

١) ـ السـخر في اللغـة .
٢) ـ تحـديد جـديد للسخر .
٣) ـ الاضطراب في استعمال السخر عنـد بعـض الادباء .
٤) ـ مقارنة بين مـدلول السخر ومداليل بعض الالفاظ الاجنبية .
٥) ـ عناصـر السـخر كما حـددناه .

. . .

١) ـ السـخر في اللغـة :

ورد في المعاجم العـربية اثناء الكـلام على مادة سـخر معان ثـلاثة : الهزء ، والضحـك ، والتكليـف .

قيـل : " سـخر من الشيء وبـه هزى بـه ، والسـخرة : الضحكـة ، وسـخره : كلفه ما لا يريـد ". (١)

وليس في المعاجـم العـربية الـتيبين ايـدينا مـدلول واحـد للفظـة سخره او لاحـد مشـتقاتها ، يخـرج عن نطاق هـذه المعاني الثـلاث ، اللهـم الا اذا اسـتثنينا ابن الاثـير فيالنهاية ، الـذى جـلا من معاني السخر معـنى الاسـتهانة او الاسـتخفاف (وهو غير الهزء وان قاربه) . قال يفسر الاية:" أتسخر مـني وانـت الملك " : " واطـلاق ظاهره على اللـه لا يجوز وانما هـو مجاز بمعـنى اتمنعـني فيما اراه من حـقي . فكأنها صـورة السـخرية " (٢) .

اما في القـرآن فقـد وردت لفظـة سـخر الثـلاثية ثماني مرات بمعـنى الهزء (فيسورة التوبة : اتـت مرتين في الايـة الثمانين بمعنى الاستهزاء ، وفي سـورة الانعام ،الايـة العاشـرة ، بالمعنى نفسـه ، وفي سورة هـو ،الايـة الاربعين ،بمعنى الهزء الشـامت ، وفي سورة الانبياء ، الاية الثامنة والاربعين ، بمعنى الهزء ايضـا . وفي سورة قاف ،الاية الحادية عشـرة ، بمعنى الاسـتخفاف ، وفي سورة البقـرة ، الايـة الثامنة بعـد المائـتين ، وسـورة الصـافات ، الايـة الثامنة،بالمعنى نفسـه م .

على ان للفظـة سخر معنى غير المعنى الـذى نجـده في المعاجم والقرآن . فهي اصطـلاحا تفيـد معاني اضـافية اصبحت لاصقة باللفظـة كـل اللصـوق ، وقـد

يكون اول ما يجب ان تقوم به في هذه الرسالة هو ضبط مدلول هذا الاصطلاح ضبطا يعين لنا بدقة ما نريد ان نبحث عنه في الادب العربي ، فالضبط هنا ضرورة لا بد منها ، لا سيما وان السخرية يكثر ترداد ها للدلالة على معان غامضة وغير محدودة .

ومن العجيب ان لا نجد في القواميس التي الفها العلماء الغربيون ما يعيننا اعانة ما في هذا الصدد .

ففي لين (٣)

سخر منه Mocked at, scoffed at, laughed at, ridiculed him

وكل هذه الالفاظ التي اوردها "لين" لا تفيد شيئا ابعد من الاضحاك والتهزئ .

اما بادجر فيعرب لفظي Irony و Sarcasm بلفظ واحد هو التهكم (٤) ، كما يعرب Humour و Wittiness بالفكاهة .

. . .

٢) — تحديد جديد للسخر :

ان السخرية ، بالمعنى الذى نتناولها فيه الان ، هي ما يلي : الهزء المخفي العسر .

والمبررات اللغوية لتحديد السخرية على هذا الوجه متوافرة في رأينا . ويكفي ان نستعرض بقليل من التحليل معاني سخر وسحر وسكر العربيتين ومعنى العبرية لنتأكد من صحة هذه المبررات .

ففي تاج العروس نجد ان من بين معاني السحر" لطف المأخذ ورقته" كما نجد" صرف الشيء عن حقيقته الى غيره " ، وكذلك " العلم والفطنة" (٦) .

ويورد الزمخشرى سحر بمعنى رئة . وفي المجاز : سحره : اصاب رئته (اى اصاب عقله) وانتفخ سحر فلان اى مل وجبن .(٧)

وفي عيون الاخبار : ربا سحره بالمعنى نفسه .(٨)

اما لفظة سكر ، فتفيد قاموسا فيما تفيد : بمعنى " التغطية" ومعنى" التعشية" ومعنى " اختلاط العقل" ، كما في سكرت ابصارنا وسكر الموت .(٩)

.../...

وفي العبرية ، يفيد جذر (سكر) معنى النظرة الخبيثة .(١٠)

وعلى هذا فان اكثر ما يمكننا جمعه تحت لفظة سخر ، وبعد التوسع الفيلولوجي الممكن ، معاني الضحك ، والتهزؤ ، والتخفية ،والاذلال ، وصرف الشيء عن حقيقته الى غيره .

واذا اعتبرنا الـ س والـ ر الحرفين الاساسيين ، فبامكاننا ان نلاحظ فروقا بين السكر والسخر والسحر على اساس تغير حرف الوسط ، كما في هتم وهشم مثلا ، التي تغير المعنى فيها الى الاشد ، بالانتقال من الـ ت الى الـ ش .فالكاف اشد من الحاء ، والخاء من الحاء ، والسخر اظهر من السحر . وفي الالفاظ كلها جامع واحد هو الخفاء . فالسخر خفاء الدلالة ،والسحر خفاء النفس ، والسكر خفاء العقل .

ومما تقدم نرى ان الجامع المشترك بين هذه المعاني مادة " سر" الثنائية التي تفيد الغبطة (السرور) وتفيد الخفاء (السر) في آن واحد .

فضبط اللفظة ، اذن ، على انها الهزء السار المخفي ، ضبط يبرره الاشتقاق اللغوي كما يبرره اتجاه الاستعمال .

ولكي نحدد المطلب الذي تقوم عليه هذه الرسالة ، نرى من واجبنا الفصل بين مفهوم السخر والمفاهيم المتصلة ببعض الفنون والاغراض الادبية التقليدية في الادب العربي .

فالسخر ، مثلا ،غير الهجاء . اذ غاية الهجاء كما في القاموس" شتم المهجو وتعديد معايبه"(١١) وليس من شروطه الاضحاك ولا من شروطه التخفية . واذا اضحك احيانا او اخفى ، فقد توسل بوسيلة ولم يقصد غاية .

والهجاء العربي ، على العموم ، مقذع يتنافى اقذاعه مع الخفاء ، وحانق يتنافى حنقه مع الغبطة ، الا ان الهجاء قد يسمو في بعضه فيكون سخرا راقيا . ولعل من فوائد دراسة السخر استخلاص العنصر ذي القيمة الحقة من مجموع الهجاء العربي .

وكذلك ما نسميه نكتة او ملحة Joke فانها ليست ما نعنيه بالسخرية . واذا كان من شروط النكتة ان تسر او تضحك ، فانه ليس فيها عنصر التوجيه الموجود في السخر : نعني به عنصر الهزء . وقد لا يكون فيها احيانا الخفاء الذي هو شرط من شروط السخر ، كما جاء تحديده .

.../...

وكما ان السخرية ليست هجاء ، وليست نكتة ، فهي ليست النادرة بمعناها القاموسي . فالنادر هو" ما سقط وشط" ونوادر الكلام : " ما شذ وخرج من الجمهور" (١٢) .فالغرابة الطريفة هي عصب فن النادرة . وليست كذلك بالنسبة الى السخر، فهي ، وان وجدت فيه ، الا انها لا تكفي وحدها ، ولا هي بالعنصر الاساسي في جوهر السخر .

ومجمل القول ان فن السخرية غير فن الهجاء Satire (١٣) الذى يكاد يغرق التراث العربي ويترك على جبين تاريخنا الادبي لطخة سوداء ، وغير فن النكتة او الملحة الذى تدور عليه مجموعة طرائفنا البيانية وتعمر به كتبنا القديمة ،وغير فن النادرة المتصل برواياتنا وقصصنا والمطيبة به متون اسفارنا وحواشيها .

واذا كنا نريد ان نتفهم السخرية حق التفهم ، فان اول ما يجب ان نفعله هو استبعاد مفاهيم الهجاء والنكتة والنادرة التقليدية في ادبنا لتحل محلها مفهوما جديداء له ذاتيته الخاصة به ، واستقلاله الذى يميزه عن سواه ، ونعنى به مفهوم السخرية باعتبارها الهزء السار المخفي .

هذا المفهوم الادبي ، الذى اقتضى البحث تخليصه من بعض الالتباسات التي يمكن ان تقع بينه وبين مفاهيم ادبية تقليدية ، هذا المفهوم يجدر بنا كذلك ان نحدده بالنسبة الى بعض المصطلحات الاجنبية التي يفكر على ضوئها الكثير من بحاثينا ومثقفينا ، والتى ترضي ولو بعض الارضاء نزعتنا القوية المتعاظمة الى الابد المقارن .

الأدب

. . .

٣) ـ الاضطراب في استعمال السخر عند بعض الادباء :

وهنا لا بد من القول انه حتى في الادب الحديث ، الواقع تحت تأثير الادب الغربي ، ذى المفاهيم المركزة في هذا الباب ، لم يتوصل ادباؤنا الى استعمال دقيق للمصطلحات التي اوردنا والشواهد على ذلك قريبة ميسورة .

فكثيرا ما ترد لفظة السخرية على قلم طه حسين ولكنها لا تعني دائما بالنسبة اليه ، السخرية بعناصرها الثلاثة من هزء وخفاء واسرار . فمثلا ، لا نرى عند الدكتور مانعا من ان يستعمل السخر مجردا عن معنى الاسرار او الاضحاك الذى يجب ان يلازمه . اسمع ماذا يقول في التعليق على قصة براكسا للاستاذ حكيم :" فاما قصة الاستاذ توفيق الحكيم فهي لا تضحك ولا تبكي ، فهي لا تسر او تحزن ... وهي الى ان تكون تصويرا لسخرية الاستاذ توفيق الحكيم من مشكلات الحكم اقرب منها الى اى شيء اخر". (١٤)

.../...

واذا اوقفنا النظر في مدلول اللفظة عند الدكتور في هذا المقام وجدنا انه يقصد الهزء ونوعا معينا من الهزء هو ذاك الشاك المستخف . يقول : " ان الاستاذ (الحكيم) قد يحب الديمقراطية على انها مثل اعلى لا يستطاع تحقيقه ... والاستاذ قد يحتمل النظام الدكتاتوري شرط ان تتحقق في ظلمه الحرية والعدالة وليس الى ذلك سبيل ... واذا فالاستاذ يسخر من هذا النظام ، كما يسخر من ذلك ،واكبر الظن انه يؤثر الفراغ لنفسه" ...(١٥)

فالسخرية اذن عند طه حسين ليست مرتبطة دائما بعنصر الاسرار . وهو لا يتردد فيان يسمي قصة ،" لا تضحكولا تبكي ، ولا تسر ولا تحزن" سخرية . اما الخفاء فانه وان لم ينص الكاتب عليه في السياق الذى اوردناه ، لمن المفهوم ضمنا انه لا يتطلبه في الاثر الادبي ليسمي ما فيه سخرا ...

يتكلم الاستاذ شفيق جبرى عما يسميه تهكم الجاحظ و فيقول ان الفرق بين الاضحاك والتهكم انما هو في ان " خفة الروح في الثاني يمازجها الخبث". (١٦)

ويقول :" ان اصل الامر في التهكم ان تقول قولا وانت تريد ضده " ثم يردف ذلكبقوله : ان الكلام على خصائص التهكم داخل في البديع" فلا حاجة الى الكلام عليه .

وهو في المعرض نفسه يسمي " اناتول فرانس" امام المتهكمين .

ويستنتج القارئ من الكلام الذى لم يحلنا فيه الاستاذ الىالبديع ان المقصود بالتهكم هو ال " Irony " الفرنجية . فاغلب الظن انه قد قصد" بالخبث وقول ضد ما يراد" عنصر الخفاء" او التعبير غير المباشر الذى تحدثنا عنه ، ثم ان ال" Irony " هي صفة فرانس الاولى ، فلا شك اذن في ان الاستاذ اراد من التهكم ان يكون الاصطلاح المقابل للفظة الفرنجية ،وهذا و كما يرى القارئ، ما لا يقبله قاموس ، ولا يرضى به ضبط لغوى . ولعل السخر الذى استعمله الاستاذ في مكان اخر كرادف للتهكم (Sarcasm) هو اقرب الالفاظ العربية الى التعبير عن هذا الخفاء او هذه الطريقة غير المباشرة في الهزء .

اما التهكم ومثله الاستهزاء ، فليس بوسعهما ، في رأينا،ان يحلا محل السخر في هذا المطلب ، واستعمالهما لهذا الغرض من قبيل التوسع غير المقبول .

اما الدكتور مندور فيتعرض للامر على عادته في الدقة والعمق ، الا انه يتسامح فيرضى ان يشمل مدلول السخر" روح العبث " المعروفة بالهيومر (Humour) والتهكم (Sarcasm) والضحك (Comique) وان كان يرى ان السخرية بمعناها الدقيق هي ال (Irony). (١٧)

.../...

وهـذا جائـز بطبيعة الحال ، الا انـه جواز يخـرجنا عن دائرة الضـبط الصـارم الـذى تريـده لالفاظـنا ومصطلحاتنا .

ولعـل الدكتور لم يوفـق في تسـمية الهيومر بروح العبث كما وفـق بتسـمية السخر والتهكم والضحك . ومن رأينا الـذى سنعرضه فيما بعـد ان " الدعاية " او روح الـدعاية اقـرب الى ان تؤدى معنى Humour لان في الدعاية بـراء ليسـت في لفـظ العبـث الـذى طالما اقـترن في تاريخ ادبنا بالمجـون ، والذى ارخى عليه الاستعمال ظـلالا سـمجة من التبـذل والاستهتار . وما اكـبر حاجتنا الـى التهـرب من هـذه الظـلال الـتي لا تتفـق مع ما توحيـه لفظـة هـيومـر .

. . .

٤) ـ مقارنة بين مـدلول السخر ومداليل بعض الالفاظ الاجنبية :

ولنعـرض في هـذا السـبيل لثـلاثة معان دل عليها الانكـليز بما يسـمى الـ " Wit " وما يسـمى الـ " Humour " وما يسـمى الـ " Irony " .

وتفيـد كلمة " Wit " نوعا من الاسـتعداد الطبيعي لتصيـد بعـض المعاني والالفاظ الـتى تشـكـل ، حـين تجتمع في جملة او تعبير ، صـورة ذهنيـة لا تخلـو ، في تناقضها وعـدم انسـجامها ، من عنصـر الطـرافة ، والتوفـق فـي المعنى والمبـنى شـرط رئيسـي فيها . ويكاد حسـن الاداء يكـون عصـب الحياة في هذا الـنوع من القـول (١٨) .

و الـ " Wit " بادرة ذهنيـة عقليـة بالـدرجة الاولى ، والمعية الاشـارة هي جوهـرها ، وليـس من شـروطها الاولى ان تسـر او تضحـك وهي كما قال عنهـا " هوبز " صـورة جزئية اكـثر منها نقـلا لواقـع .(١١) ونحن نعـربهابلفظة بـديهة .

اما " Humour " فتفيـد في رأى الاسـتاذ لي (S;Lea)(٢٠) نظـرة الى المضحـك او غـير المتناسـق من زاوية خاصة . وقـد يكون من الصعـب تحديد اللفظـة تحـديدا وافـيا ، لانها اكـثر دقـة واكـثر غموضا من البديهة (Wit) والفرق بين الاثنتين ان هـذه تعتمـد على روح المـرح اكثر من اعتمادها على براعة اللمـح . وفيها عنصـر عاطفي ومزاجي او حسـي غير ذهني ليـس في الثانية . ونؤثـر ان نعـربها بلفظـة دعابة .

اما السـخرية (Irony) فهي حسـب تحـديد الموسوعة البريطانية " نوع من التهكم (Sarcasm) يعتمـد فيه الكاتـب طـرازا من التعبير لا يقصـد فيـه مـداليـل الالفاظ الحـرفية تماما ، والاصـل اليوناني للفظـة : ان تقـول اقـل مما تعني ، او ضـده . وقصـد التهزئ شـرط من شـروطه ".(٢١)

.../...

وبقليل من التفهم لمعاني هذه الالفاظ نرى ان كلا من الدعابة (Humour) والسخر (Irony) يختلفان عن البديهة (Wit) بما فيهما من روح عامة . واذا صح ان البديهة صورة جزئية - وهو صحيح - فانه لا يجوز ان يقال مثل هذا القول في الدعابة او السخرية .

وكذلك تختلف هاتان اللفظتان بان الاولى تنطوي على روح من المحبة او العطف ليست في الثانية ، فهي مرح خفي برئ اكثر منها موقفا من مواقف العقل الهازئ .

واذا استطعنا ان نقول ان ميزة السخر هي " حس التناسب " ، او " العدالة " بمعناها الاوسع فاننا نستطيع ان نقول ان ميزة الدعابة هي التواضع . فبينما يقوم الاضحاك في الاولى على الهزء بالكون والناس يكاد يستوي في الثانية الضاحك والمضحوك منه وذلك في شيء من الاعتراف الضمني الخفي بضعف الانسان .

ولقد قلنا ان السخرية التي نريد ان ندرسها هي فن " الهزء الساخر المخفي " . وهذا ما نحاوله فيما يلي .

. . .

٥) - عناصر السخر كما حددناه :

١) - عنصر الهزء (=)

ليست السخرية هزوا فحسب ، ولكن الهزء هو العنصر الاهم فيها .
وكثيرا ما يلتبس في الاذهان معنى الهزء بمعنى السخرية وقد بينا فيما سبق انه مرادفها القاموسي ، وان كنا آثرنا ضبط مدلول السخر ضبطا اصطلاحيا لغويا آخر .

فالهزؤ هو الذي يعطي السخر صفته الاساسية ،صفة التي تربطه بموضوعه ربطا وثيقا . والسخر انما يكون من شيء او من شخص . وهو يتضمن قصدا معينا غير مجرد الاضحاك . واذا صح ان اصله هو كما حدده بعض الباحثين " ادراك فجائي لضرب من التفوق في انفسنا بالمقابلة بينه وبين نقصه نكشفه في الاخرين " (٢٢) فان الهزء جوهر السخر الاصيل .

واعمق من هذه العلاقة بين الهزؤ والسخرية علاقة اخرى قوامها ان الهزء هو الذي يمد السخر بهذه النزعة التحررية الكامنة فيه . فالسخر انما يخفي في تضاعيفه صبوة غلابة الى القول اكثر مما يجب ان يقال ، او يحسن ان يقال ، او جرت العادة على ان يقال ، وهذه النزعة التحررية موجودة في كل سخر ، غير انها تتصل في بعضه بروح الشك الكافر الجاحد ، انها تصبح في بعض

.../...

الاحيان استهتارا عقليا غير مفيد . قال اناتول فرانس : " ان الشهداء تنقصهم السخرية ، وهذه خطيئة لا تغتفر ... واني ارى قربى بين الشهداء وجلاديهم في التعصب . اما التعصب فلا يتفق مع طبيعة رابليه الضاحكة الحرة الرحبة . . ." (٢٣) فكأن التحرر يصل ، في بعض السخر ، الى حد رفض القيم _ كما حدث فرانس ، وهو من هو في هذه الصناعة .

وسواء اصح ذلك ام لم يصح ، فان حدا ادنى من التحرر العقلي او التساهل المزاجي هو شرط من شروط السخر .

٢) _ عنصر الخفاء :

قد فطن النقاد ، منذ زمن بعيد ، الى عنصر الخفاء او الاخفاء في الادب ، وجرى حديثه على اقلام الكثيرين من الفلاسفة اليونان ، والنقاد الغنيين في الشرق والغرب ، الا ان هذا العنصر لم يبحث على صعيد نقدي عال الا مع نشوء المدارس الادبية الحديثة ، ولا سيما مدرستي " الرمزية " و " السريالية " . فقد انتقد اصحاب هذه المذاهب الادبية روح الخطابة وكشف النفس في التقليد الانطلاقي واكدوا ان الفن ايماء لا اداء صريح . بل انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك فاعتبروا الغموض " مفتاحا ذهبيا للابداع" (٢٤) . واوجبوا على الفنان التعبير عن ذاته " بالفاظ غير مباشرة هي اخت الصمت " (٢٥) واشترطوا ان ينبسط على الكلام " ظل خفيف" بحسب تعبير بشر فارس في مقدمة مسرحية " مفرق الطريق ". وفي عرف ملارميه ان جوهر مذهبه الفني هو" التقاط الشيء وعرضه تحت غشاء من الغرابة والوهم . وتلك هي المعجزة".(٢٦)

ولم نستشهد باقوال الرمزيين لنظهر تشابه الابهام في الرمزية والخفاء في السخرية . فالفرق بينهما عظيم . غير اننا استشهدنا بها توصلا الى تقرير فطنة الادباء ، ولا سيما المحدثين منهم ، الى قيمة الخفاء في الفن والى اهمية الابحاث والاشارة والتلميح في عرفهم . واذا كان الرمزيون قد بالغوا في هذا الصدد وحاولوا ان يعظموا من شأن الخفاء على حساب عناصر فنية اخرى فان الفضل يظل لهم في اظهار قيمة الخفاء والايماء الفنية .

وفي اعتقادنا ان عنصر الخفاء في السخرية هو سر التقارب الاول بين الاديب الساخر وقارئه ،فبفضله تقوم المشاركة المطلوبة بينهما ، وبفضله تحلو لذة الاكتشاف الممتع في ذهن المطالع ، وبفضله تتفسح امامه افاق المعاني الرحيبة غير المحدودة حدا ماديا قاطعا .

وان احدا لا يستطيع ان يتصور كيف يكون السخر مجردا من الخفاء .

٣)- عنصر الاسرار :

اما عنصر الاسرار في السخرية فمصدره - فيما يذهب اليه علماء النفس - شيئان : الحس بالتفوق (Superiority) والحس بعدم - التجانس (Incongruity) (٢٧) وقد فسر هوبز الضحك كما رأينا قبلا بانه " شعور مفاجيء بالظفر" نحسه بمقارنة ذواتنا بالغير . واوضح لودوفتشي (Ludovici) هذا القول بان قرر ان الضحك ينطوي على الاعتزاز بافضلية طريقتنا في التكييف للحياة (Adaption to life)(٢٨) وقد ذهب دوغال (Mc Dougall) الى اعتبار السرور وسيلة لتجنب الشعور بالعطف (Antidote of symphathy) اذ قرر انه " - بالمرح - نستغني عن المشاعر المزعجة التي تحملها لذواتنا ان نحن شعرنا بالعطف مع شخص من الاشخاص ، اي اننا نضحك لكي لا نبكي" (٢٩) .

غير ان هذا القول لا يتناقض مع الرأي الاول ، ولا هو ينفي اننا انما نضحك شاعرين بالتفوق او هازئين بعدم التجانس .

ويبقى قائما في تفسير الضحك انه ينتج عن مقابلة او معاكسة بين الوقائع كما هي ، وبينها كما يجب ان تكون او كما يظن انها ستكون ، او كما ينتظر كونها . وقد يحسن ان نشير ونحن في معرض الكلام على عنصر الاضحاك او الاسرار في السخر الى علاقة هذه الاسرار بالذكاء . ذلك ان السخر لا يستطيع ان يستغني ، كما رأينا ، عن المقابلة بين الوقائع وصورها المثالية ، ولا عن الفطنة الى عدم التجانس بينها . وهو ، بعد اسلوب في التفكير والتعبير . وليس الاسلوب ، كما قال اناتول فرانس ، سوى دقائق الفكر غير المتناهية" . (٣٠) .

اننا بفضل هذه الحقيقة ، نتمكن من فهم قول الكاتب نفسه في المقال نفسه : " ان السخرية هي غبطة التأمل ، وفرح الحكمة .(٣١)

من كل ما تقدم في الكلام على عناصر السخرية ، اي الهزء والاسرار والخفاء نتبين ، ارتباط السخرية بامور مختلفة اخرى ، منها قدر معين من التحرر في النظر الى شؤون الكون والحياة ، ومنها حد ادنى ضروري من الاخذ بالايحاء الفني ، ومنها مستوى مطلوب من الذكاء الدقيق . وكذلك تلمح ارتباط السخرية بالعطف او المحبة لان السخرية من النفس والى النفس ، لا تمس الغير الا برفق " (٣٢) ولان " الجد مبغضة والمزح محبة .(٣٣)

.../...

وبقليل من التسامح في التعبير نستطيع ان نجد علاقة بين السخرية والنظر الفلسفي، مفهوما على اوسع معانيه ، كما في قول باسكال (Pascal) المشهور : ان تهزأ من الفلسفة ، فذلك من الفلسفة ، ونستطيع ان نقول مع برت (Britt) : ان روح الاضحاك (ومنه السخر) يختلف باختلاف الثقافات وانه عند قوم غيره عند اخرين ." وان علاقته بطرق تفكير الامم وتذوقها ومزاجها علاقة وثيقة ". (٣٤)

ولما كان ذلك كل ذلك مرتبطا بالدراسة التطبيقية التي سنعتمدها في هذه الرسالة ، فاننا نفضل ان لا نسترسل فيه الان ، لا سيما وان دراستنا ستتناول بالدرجة الاولى ذلك النوع من السخر الذى تظهر فيه خصائص السخرية بوضوح وغزارة ، ونعني به فن السخر ، ولا يختلف فن السخر عن السخر سوى ان الاول يمتاز على الثاني بعنصرى الاستيفاء للموضوع والافتتان العقلي . وهما العنصران اللذان يرتفعان بالسخر في ضروب من الجزر والمد . والمفاجأة والمقابلة الى اعلى انواعه .

ان جهودنا اذن متوجهة في هذه الرسالة الى تبيان " فن الهزء المخفي السار" في الادب العربي المنثور مع العلم ان هذا يقتضي بطبيعة الحال ان ندرس اصول السخر وتطوره ، قبل نضجه الفني المرضي .

.../...

١) - هامش الفصل الاول

١) - ابن منظور ، جمال الدين ، لسان العرب ، بولاق ١٣٠٠ - ١٣٠٧ ، سخر
٢) - ابن الاثير ، الجندى مجدالدين ، النهاية في غريب الحديث والاثر ، عثمان عبدالرزاق مصر ١٣١١ ، سخر
٣) - Lane ، مد القاموس ، London 1863 ، سخر .
٤) - Badger, An Arabic English Lexion, London Paul I88I, Irony, Sarcasm.
٥) - Badger; Lexion; Wittiness & Humour
٦) - الزبيدى ، محمد بن محمد الحسيني ، تاج العروس ، سخر ، مصر ١٣٠٦ هـ - ١٣٠٧ ، سخر
٧) - الزمخشرى ، محمود بن عمر ، اساس البلاغة ، دار الكتب المصرية ١٩٢٢ - ١٩٢٣ ، سكر
٨) - ابن قتيبة ، عبدالله بن سالم ، عيون الاخبار ، دار الكتب المصرية ١٩٢٥ - ١٩٣٠ ، ج ١ ، ١٦٩ .
٩) - الزبيدى ، تاج العروس ، سكر
١٠) - Hebrew and English Lexion of the Old Testament, Oxford Univerdity, Press MOCCCVII
١١) - الزبيدى ، تاج العروس ، هجو
١٢) - الزبيدى ، تاج العروس ، ندر
١٣) - Badger, Lexion, Satire
١٤) - حسين ، طه ، فصول في الادب والنقد ، مطبعة المعارف مصر ١٩٤٥ ، ص ١٤٢
١٥) - حسين ، فصول في الادب والنقد ، ص ١٤٢
١٦) - جبرى ، شفيق ، الجاحظ معلم العقل والروح ، دار المعارف ، مصر ١٩٤٨ ، ص ١٩٩
١٧) - مندور ، محمد ، في الميزان الجديد ، مطبعة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٤٤ ، ص ١١٠
١٨) - Encyclopedia Britanica. Wit Copyright I95I

.../...

١٩) - Encycl. Brit. Humour

٢٠) - Encycl. Brit. Humour

٢١) - Encycl. Brit. Irony

٢٢) - Encycl. Brit. Humour

٢٣) - France Anatole, La Vie Litteraire, V.3, Paris Levy I899 P.32.

٢٤) - Poizat, Le Symbolisme, Paris S.D. P.I43

٢٥) - Mallarme Stephen, Divagation, Paris Fasquelle I946, P.326

٢٦) - Thibaulet, La poesie de Stephen mallarme, Paris I946, P. I09

٢٧) Britt. S;H. social psychology and Modern Life, P.228 N.Y. Farrar I944

٢٨) - Britt. S:H. Social paychology & Modern Life, P.230

٢٩) - Dougall Mc. Outline of paychology, PP. I65-I70

٣٠) - France A. Vie Litteraire. V.I. P. 323

٣١) - France A. Vie Litteraire, V.I. 323

٣٢) - مندور ، الميزان الجديد ، ص ١١١

٣٣) - الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، المطبعة الرحمانية ١٩٣٣ ، ص ٢٢٠

٣٤) - Britt. S.H. Social Psychology & Modern Life. 229

الفصل الثاني

اصول السخرية

١) ـ الامثال
٢) ـ القصص البدوي
٣) ـ النوادر .

مما لا شك فيه ان العرب قد عرفوا قبل الاسلام ضروبا من النثر . فقد كان لهم حظ لا بأس به من الحضارة في مكة والطائف والمدينة . وكانوا يتخذون الكتابة العادية في اغراضهم التجارية والاقتصادية ، وكانوا على حظ غير قليل من الاتصال باليهود والنصارى ومجوس الفرس . فكان من المعقول ان يدعوهم هذا كله الى التفكير والروية ، ثم الى الكتابة الفنية واستحداث النثر ، وكانوا على حظ من المعرفة باخبار الاولين واحوال الامم الاخرى ، وكان لهم الوان اخرى من الفنون كالنجوم والطب وما الى ذلك . وكل هذا يكفي ليكون لهم نثر ما . ولا ينكر ذلك اكثر الناس تطرفا في الشك في الادب الجاهلي .(١)

ولكن الذى اجمع عليه النقاد في هذا الشأن هو القول بان هذا الادب الجاهلي لم يصلنا منه شيء بطريقة قاطعة او مرجحة . فالخطب التي تضاف الى وفود العرب عند كسرى ، وسجع الكهان ، وكلام قس بن ساعده ، والحكم ، والوصايا التي تنسب الى حكماء الجاهلية وعظمائها ، كل هذه اصبحت مرفوضة ، قد قطع بانتحالها في الوقت الحاضر .

ثم ان هذه الاثار ، حتى لو صحت نسبتها الى العصر الجاهلي ، او جاز اعتبارها " جاهلية " باعتبار طريقتها الجاهلية ، لا يمكن ادخالها في مجرى بحثنا على اى حال . فالسخرية ابعد ما تكون عن كلام يقال في حضرة كسرى او سجع يسجع به كاهن ، او حكمة يطلقها واعظ . واشخاص كقس بن ساعده او اكثم بن صيفي او ذى الاصبع العدواني هم آخر من يصح ان نفتش في اثارهم عن السخر .

. . .

١) ـ السخرية في الامثال

ونحن ، اذ نقول هذا القول ، نخرج من حكمة قسما هاما من الادب المنسوب الى الجاهلية ، الا وهو الامثال ، التي خلف لنا عرب الجاهلية

.../...

تراثا كبيرا منهاء والتى اهتم بها بعض علماء العصر العباسي .

ومع انه من الصعب جدا التحقيق من جاهلية الامثال (٢) لاسباب عديدة اهمها بعد الزمن بين الجاهلية وجامعي الامثال ، فاننا نستطيع ان نؤكد ان منها ما يعود بلا شك الى العصر الجاهلي ، لما تقتضي سيرورة المثل من تقادم الزمن وتراكم التجارب الانسانية . ولما في الامثال التي جمعها اناس كالمفضل وابى عبيد وابن هلال العسكرى والميداني وغيرهم من شكل يكاد يكون جاهليا سواء من حيث الروح او من حيث القصص الذى يدور حول المثل .

وباستعراض الامثال الساخرة في التراث العربي ، يخلص الباحث الى شيء من التصنيف لمختلف انواعها . واهم هذه الانواع ثلاثة :

١) ـ ما جاء في السخرية من القبح والتقص في الحياة والناس .
٢) ـ ما جاء في السخرية من مفارقات الكون ومتناقضات الحياة .
٣) ـ ما جاء في الشماتة الساخرة من بعض التجارب الانسانية الفاشلة .

و قد كان من الممكن ان نصنف الامثال على اساس خصائصها الفنية من تصوير وموسيقى وبلاغة ، الا ان تصنيفا من هذا القبيل يكون اقل انسجاما مع مجرى البحث العام ، فضلا عن ان التعرض الى بحث العناصر الفنية يأتي حتما عند دراسة كل مثل .

وعلى هذا ، سنعتمد في بحثنا هذا على التصنيف الموضوعي .

١) ـ ما جاء في السخرية مع القبح والنفس في الحياة والناس .

من الامثال التي جاءت سخرا من القبح قولهم : ذكرني فوك حمارى اهلي .(٣)

وقصة هذا المثل : ان رجلا شابا غزلا خرج يطلب حمارين لاهله فطرق اذنيه صوت امرأة ، فشغله حسنه عن حاجته فجلس بحذاء المكان الذى هي فيه ، فلما اطلت عليه اذ لها اسنان مكفهرة منكرة مختلفة ، فلما رآها ذكر حماريه فقال : ذكرني فوك حمارى اهلي .

في هذا المثل ، يلمح القارئ عنصرا هاما عن عناصر السخرية الموفقة ، الا وهو التعبير غير المباشر عن الفكر . لم يأت صاحب المثل بوصف مضحك لفم امرأة المسخور منها ولم يبرز ما فيه من قبح وشذوذ ابرازا تصويريا . ولكنه اتى بهذا التذكر الذى يغني عن كل وصف ، واتى بهذه الصورة التي تثير الشفقة عليه وهو ازاء فم هذه المرأة القبيحة ، فكان ان اصطبغ المثل بهذه الصبغة الساخرة الجميلة ، مما يجعلنا نتخيل ضاحكين شكل هذا الوجه الذى الهم صاحبنا الهدى ، وصرفه الى السعي في مطالب الحياة المعاشية ، وغايلتها الجدية الرصينة .

.../...

ومن هذه الامثال الساخرة مثل جاء في السمنة ، يقال : سمن حتى صار كأنه الخرس (٤) فانظر الى هذه السخرية الضاحكة كيف تلحظ ما في السمنة من شذوذ ، ثم كيف تعكس بينها وبين القدود البشرية المعتدلة ، فتخرج الى تشبيه السمنة والجماد ، وكأن صاحب المثل يقول ان عدم اعتدال القد يفقد الناس الى حد ما شكلهم الانساني فلا عضل ولا رسم ولا هيكل ،بل كتلة من اللحم يكاد المرأ يحسبها معدومة الاعضاء ، اشبه ما تكون بالخرس ، وهو الدن العظيم .

وانك لتجد بين هذا المثل وبين ما يسمى كاريكاتورا علاقة واضحة . فليس هو الا مبالغة في بعض وجوه القبح في المسخور منه ،وليس هو الا تشديدا وتأكيدا على بعض الخطوط البارزة في صورة السمين . فهو اذن من روح الكاريكاتور الذى يقوم عليه اعظم قسم من السخر الفني في الصحافة الحديثة .

ومن الامثال التي جاءت في الجبن قولهم : مكره اخوك لا بطل (٥)

وقصة هذا المثل ان احد طالبى النار سمع ان قتلة اخوته في غار يشربون فيه فانطلق بخال له يكنى ابا حشر فقال له هل لك فيغار فيه ظباء لعلنا نصيب منهن . قال نعم . فانطلق الرجل بابى حشر حتى اذا قام على باب الغار دفع الخال ابا حشر فقال بعضهم ان ابا حشر لبطل ، فقال ابو حشر مكره اخوك لا بطل .

والسخرية هنا لا تتوجه الى الجبن فحسب وانما تتوجه الى نوع معين من " البطولة " هو البطولة الاضطرارية اذا صح التعبير . وفي هذا الجمع بين الاضطرار والبطولة تكمن السخرية . بالبطولة في الاصل ، اختيار وتطوع . اما بطولة صاحبنا فهي بطولة مزيفة زجته فيها الظروف زجا ، وليس له فيها يد ولا رغبة ، وسخرية الاقدار وحدها هي التي اوقفته الموقف الذى وقف .

ومن الامثال التى مثلث في الاتكالية قولهم : عم العاجز خرجه (٦) .

وقصة المثل ان احدهم خرج مع عمه لسفر ولم يتزود ، فطلب طعام عمه فقال له عمه : عم العاجز خرجه .

فانظر الى هذه السخرية تجعل من الخرج عما لطالب الطعام . لقد اغنى ما فيها من ايجاز ساخر عن عظة مطولة . واذا اجزنا لانفسنا ان نتعمق في اغوار هذا المثل لوجدنا فيه سخرية مرة من الامعان في الاغترار بمتانة الروابط التى تشد الناس بعضهم الى بعض سواء أكانت قربى ام صداقة .

فليس من معين للانسان في ساعة الشدة الا نفسه لا عمه ولا خاله ولا رفيقه .

.../...

وهكذا نرى في هذا المثل سخرية مزدوجة : سخرية من الاتكالية ، وسخرية من السذاجة التي تعمر بعض القلوب فتجعلها مؤمنة بمتانة الروابط الانسانية عند الازمات ومن الصعب جدا القطع اى السخريتين هنا هى الاعمق والابلغ .

ومن الامثال الساخرة بالمسرفين : خرقاء وجدت صوفا (٧) .

يطلق هذا المثل على من يتصرفون في اموالهم واشيائهم تصرف المعدم الذى وجد نفسه فجأة ميسورا ، فكأن له على حالته السابقة وترا ، فهو يغرط في البذل والاسراف والتبذير افراطا غير طبيعي وغير معقول . ووجه السخرية ان التصرفات التي يأتي بها والتي تدل عند غيره على كرم المحتد وطيب العنصر تنقلب عنده دليلا على حداثة النعمة ، فتكشف الحقيقة القبيحة وهذا هو ما يثير الضحك والهزء بدلا من ان يثير الاحترام والتقدير .

٢) - ما جاء في السخرية من مفارقات الكون ومتناقضات الحياة .

من هذا القبيل قولهم : ابي يغزو وامي تحدث (٨)

وقصة المثل ان رجلا غزا ، ورجع ظافرا ، فسئل ، فاخذت امرأته تذكر وقائعه ومسالته فقال ابنهما : ابي لم يغزو وامي تحدث .

وتقوم السخرية في هذا المثل على المفارقة المضحكة التي تجعل من الذى لم يشترك في الحادثة اكثر علما بالحادثة من صاحبها ، ومن الذى لا يد له في الامر اكثر اعتزازا به من فاعله ، فكأن الله قد خلق بعض الناس ليعملوا صامتين وبعض الناس ليثرثروا ويتباهوا من غير عمل . فيا للتناقض العجيب .

وانك لتحس في هذا المثل كأن الحياة ذاتها هي التي تسخر من نفسها ، وكأن عنصر الاضحاك كامن في الطبيعة لا في قول القائل .

ومن هذا القبيل قولهم : انف في السماء واست في الماء (٩)

يضرب للمتكبر الصغير الشأن . ووجه السخرية في هذا المثل (الذى لا يخلو من قسوة ظالمة) انما هو في هذا التناقض بين جور الطبيعة على رجل من الرجال وعزته وكبريائه في عين نفسه ، مما يجعل من موقفه الذى قد ينطوى في بعض الاحيان على مأساة حقيقية مثار هزء وضحك ، يظهر فيها المسخور منه بمظهر المتطاول الى ما ليس له ، المدعى بما ليس فيه .

وقد يكون الانف الشامخ الى السماء دليل عزة ، وقد يكون الاست في الماء مدعاة شفقة ، ولكن الناس مع ذلك يضحكون للمفارقة ويسخرون منها ويطربون للمثل . فهو اذن من الامثال الساخرة .

ومنها ايضا : ان البغاث بارضنا يستنسر (١٠)

٠٠٠/٠٠٠

يضرب للصعاليك يحاولون ان يظهروا بمظهر ذوى الشأن ، فكأنهم البغاث ، هذا الطير الضعيف الضئيل الشأن ، يريد ان يقلد ملك الطير في القوة والسطوة وهيهات وقد يتوسع احدنا في فهم المثل فيرى فيه ، لا سخرية بالمدعين المغرورين فحسب ، بل سخرية بالبلد الذى تضيع فيه المقاييس وتنقلب الموازين حتى ليتطلع البغاث الى منزلة المنسور ، وفي ذلك ما فيه من التناقض والمفارقة العجيبين الغريبين ، بل المضحكين في بعض الاحيان .

ومن باب الامثال الساخرة من مفارقات الدنيا ومتناقضات الكون قولهم :

اوسعتهم شتما واودوا بالابل .(١١)

يمثل هذا القول من يظهرهم الواقع في مظهر الجبن ، وتظهرهم اقوالهم في مظهر البطولة ، فصاحب المثل قد اوسع الغزاة شتما ،فهو اذن ابي انوف كريم . ولكنه ، مع ذلك ، تركهم يودون بالابل ، فلم يجد في عمله اساءة الى الاباء والانفة والكرامة ، بل رأى في شتمه الغزاة ما لا يجوز ان يسكت عنه من المفاخر .

وهذا المثل كثير الانطباق على بعض الناس في هذه الدنيا . ينسون كل ما يرتكبون من اخطاء وخطيئات ليتمسكوا بادنى مفخرة اتوها ،وايسر واجب قاموا به ، واقل خدمة ادوها ، فيعرضوا انفسهم بذلك لهذه السخرية الضاحكة التى ينضح بها المثل القديم .

٣) - ما جاء في الشماتة الساخرة من بعض التجارب الانسانية الفاشلة .

يقال :" الصيف ضيعت اللبن "(١٢)

وقصة المثل ان عمرو بن عدس ... تزوج بنت عمه بعد ما اسن وكان اكثر قومه مالا فلم تزل تولع به وتؤذيه وتسمعه ما يكره حتى طلقها وتزوجها من بعده ابن عم آخر لها ، وكان رجلا شابا قليل المال فمرت ابله عليها كأنها الليل من كثرتها فقالت لخادمتها ويلك انطلقي الى عمرو فقولي له فليسقنا من اللبن فاتاه الرسول فقال ان بنت عمك تقول لك اسقنا من لبنك فقال لها قولي لابنة عمي : الصيف ضيعت اللبن .

وفي هذا المثل سخرية واضحة من اولئك الذين لا يتعرفون الى سواهم الا عند حاجتهم اليه . وفي قوله " الصيف ضيعت اللبن " سخرية من تلك الزوج التى زهدت بزوجها ، وظلت بحاجة الى لبنه . فهي في هذا السبيل ترسل اليه الرسل ، وتطلب منه ان يسقيها اللبن ، فيستغل هو الموقف ليضحك من هذا التناقض الذى تقع فيه ، ويشمت فيها بعض الشماتة .

ومثل آخر من هذا القبيل : على اهلها تجني براقش (١٣)

... /. ..

وقصة المثل : ان براقش ابنة تقن كانت امرأة لقمان بن عاد ، وكان بنو تقن عاد اصحاب ابل ، وكان لقمان صاحب غنم وكان لا يطعم لحوم الابل ، فاطعمته امرأته براقش من لحوم الابل فنحر ابلهم التي يحتملون عليها فاكلها ثم قاتل اخوتها على ابلهم فقيل على اهلها جنت براقش .

ويضرب المثل لمن يأتي بامر لم يطلب منه القيام به ظنا منه ان فيه خيرا لنفسه او للناس فينقلب عليه شرا وسوءا . وهو ، في روحه ، سخر من التصرفات الفضولية التي كثيرا ما تسبب للقائمين بها متاعب هم عنها في غنى اكيد . ولقد ذهبت براقش ضحية اقتراحها اكل لحم الابل على زوجها لقمان وكم في الناس من جوزي جزاء براقش ، وكم منهم من جازى كما جازى لقمان .

ولولا قصد الاكتفاء باعطاء نماذج على السخرية في الامثال ، ولولا ضرورة الايجاز في هذا الفصل ، لاتينا بعدد اكبر من العدد الذى اتينا به ، ولا سيما من النوع الثالث الذى تكثر عليه الشواهد ، ولكن ما تقدم كاف لاعطاء فكرة ، فلننتقل اذن من الامثال نفسها الى كلمة مجملة عن السخرية التي نجدها فيها و وعن المقام الذى يجب ان تعطاه في دراسة السخرية في الادب العربي .

لكى نحكم حكما قيميا على السخرية في الامثال اجمالاء يجب ان نفرق بين نوعين من الامثال (١٤) .

ما كان منها تقرير حقيقة او سرد واقعة .

وما كان منها مبنيا حول قصة واقعية او غير واقعية او حادثة معروفة في التاريخ .

اما النوع الاول فلا يهمنا منه الان سوى التنبيه الى وجوده والاشارة الى روح السخرية التي يحتوى عليها احيانا . واما النوع الثاني ، ونعني به الامثال المبنية على قصة او حادث ، فهو ما نحب ان نقف عنده .

يعتقد فريتاع : ان اكثر الامثال العربية نشأت حول حادث معين (١٦) وقد ذكرنا بعض القصص التي يروونها عن اصل بعض الامثال وكان القصد الذى توخيناه من ذلك التدليل على ان العصر الجاهلي قد عرف الادب الساخر ، بصورته البدائية ، ولو لم يكن له من هذا الفن الا القسم الذى يدور على الامثال الساخرة لكفى به برهانا على ان السخر لم يكن مجهولا عند الجاهليين ، بل ان اسلاف المسلمين قد عرفوا شيئا منه يدل على ذكاء ، ومرح ، وحكمة ، وان لم يبلغوا في ذلك شأوا بعيدا .

ان السخرية الجاهلية ليست ـ بالطبع ـ سخرية بالمعنى الفني الادبي الصارم الذى نقصده بالكلمة الان . فهي ، وان لم تخل من نكتة ، او ظرف ، او ايماء ، او تنبه الى مفارقة مضحكة في الحياة والناس ، او صورة كاريكاتورية طريفة

.../...

الا انها تبقى مع ذلك بحاجة الى عنصر الاستيفاء الذى به وبه وحده تسمع السخرية ، وتدق وتتألق ، وفي بيئة منغلقة على نفسها كالبيئة الجاهلية ، لا يزدهي الافتنان العقلي الا الى حد ، ولا ينشط الخيال المولد الا بمقدار .

ومن يدرى فلربما كان يمكن هذا الفن ان ينمو ويكتمل ويتطور الى فن راق من السخر الادبي لو ظلت الحياة العربية على ما كانت عليه ولو لم تخضع الجزيرة العربية في القرن السابع لهذه الهزة الروحية والمادية الشاملة التى اوجدها الاسلام .

لقد قلب الاسلام حياة الشعوب ، وخلق تيارات فكرية واجتماعية واخلاقية جديدة ، ووضع اسسه الخاصة به للنهوض والتجدد والرقي . فمن الطبيعي ان لا تأتلف روحه مع هذا المزاج الساخر العابث الذى يتطلبه تطور بعض الاثار الجاهلية. ومن الطبيعي ان لا تأتلف مثله العليا مع هذه المثل العملية الواقعية المشككة ،التى توحي بها التجارب الانسانية ، الفقيرة نسبيا ، المعبر عنها في الامثال . واذا كان الاسلام قد صرف الناس عن طرز حياتهم القديمة وطرز تفكيرهم ، وطرز تصورهم للمثل العليا والحياة السامية ، فاول ما صرفهم عنه هو هذا السخر بالذات .

. . .

٢) — السخرية في القصص البدوى

غير ان هذا لا يعني اننا لن نجد بعد الاسلام من يكملون سيرة الاسلوب الجاهلي الذى رأيناه في الامثال . كلا ، فليس في التاريخ شيء اسمه انقطاع كامل . بل المقصود ان التيار العام قد تغير والاتجاهات الكبرى قد تبدلت . اما روح السخر الجاهلي فلا شك ان شيئا منه قد استمر بعد الاسلام ، لا سيما ان التقاليد الادبية بقيت متأثرة بالبداوة .

وكما حاولنا في الفصل السابق ان ندلل على وجود عنصر السخرية في فن الامثال الذى كان معروفا من غير شك في الجاهلية كذلك سنحاول فيما يلي ان ندلل على وجود هذا العنصر نفسه في القصص البدوى الذى يشكل ضربا من الاستمرار للحياة العربية الخالصة .

فمنذ ان نشأت الحاجة الى دراسة العربية ووضع قواعدها ، ولدت معها الحاجة الملحة الى العودة الى مصادر العربية الاولى ، وهي الشعر واللغة والاخبار ، وقد شملت هذه الحاجة العرب وغير العرب . فاذا بهؤلاء يساهمون متعاونين او متنافرين في احياء الحياة العربية واذا بابى عبيده الخزرى وخلف الاحمر الفرغاني وحماد الراوية الخزرى وابن الاعرابي الندى ، وابي زيد ، والاصمعي ، والمفضل الضبي العرب ، اذا بهم جميعا ازناد تورى بهم حركة ادبية قصصية لا تخلو من عنصر الفن والوضع .

وقد ساهم في اذكاء هذه الحركة حدة النزعات القبلية وتصادمها واتقاد الخصومات الشعرية وما تجره مثل هذه الامور من اخبار وقصص طلبها العلماء في حلقات الدرس وفي الاعراب .

غير ان هذه الحركة الادبية القصصية قد خلت الى حد بعيد من عنصر السخرية الذى ننشده في هذا المقام . وانما كان اساسها القرابة اللفظية لاثبات كلمة لغوية او تزجية عبارة مأثورة او اثارة شعور الدهشة لدى جمهور المتأدبين . وقد فطن الجاحظ الى طبيعة هذه الاخبار فقال : " لم ار غاية النحويين الا كل شعر فيه غريب . ولم ار غاية رواية الاخبار الا كل شعر فيه الشاهد والمثل " .(١٧)

الا ان هذه الحركة لم تخل تماما من اصول للسخرية وسنكتفي الان باعطاء بعض الشواهد التي نجدها عند ابن دريد ، هذا الاديب الجدير بتمثيل القصص البدوى في اوجه .

يزعم الدكتور زكي مبارك في كتابه " النثر الفني " : " ان ابن دريد هو المنشى ء الاول لفن المقامات ". (١٨) وسواء اصح لنا ان نعتبر ما نسب الى ابن دريد في باب المقامات ام لم يصح ، فانه مما لا شك فيه ان الاحاديث التى رواها القالي مسندة الى ابن دريد تحتوى على قدر كبير من عناصر السخرية .

واذا اضفنا الى هذه الاحاديث حديث ابن دريد في حج ابي نواس الذى نقله عن حمزه الاصفهاني جامع ديوان ابي نواس - كما يريدنا الدكتور مبارك ان نفعل - فان ابن دريد يكون من اوائل الذين رفعوا الفكاهة من الاسلوب الاخبارى الى الاسلوب الفني وجعلوا من الملحة التى عرفها العرب كما عرفها كل شعب شيئا قريبا من السخر . ومراجعة احاديث ابن دريد في الامالي ، نلاحظ ميل هذا الاديب الشديد الى الاطراف ، فانه قد اتى الى جانب الاحاديث عن فرسان العرب واجوادهم وعظماء الجاهلية وابطالها ، بعدد غير يسير من الاقاصيص التي تدور على السخرية والاضحاك .

من هذه الاحاديث القصة التالية :

قالت عجوز من العرب لثلاث بنات لها : صفن ما تحببن من الازواج . فقالت الكبرى : اريده اروع بساما ، احذ مجذاما ، سيد ناديه ، وثمال صافيه ، محسب راجيه ، فناؤه رحب ، وقياده صعب ، وقالت الوسطى : اريده عالي البناء مصم المضاء ، عظيم نار ، متمم ايسار ، يفيد ويبيد ، ويبدئ ويعيد ، هو في الاهل صبي ، وفي الجيش كمي ، تستعبده الحليلة ، وتسوده الفضيلة ، وقالت الصغرى : اريده بازل عام ، كالمهند الصصام ، قرانه حبور ولقاؤه سرور ، ان ضم قضقض ، وان ...... اغمض وان اخل احمض . قالت امها : فض فوك ، لقد فررت لي شرة الشباب جذعة " .(١٩)

.../...

فانظر هذه السخرية الخبيثة تتضمنها كلمة الصغرى ، كأننا بها تقول للكبرى والوسطى : كفى ادعاء وتهويلا ، بل كأننا بها تعبر ، في واقعية وديعة عن لهفة كل فتاة الى الجمال والنضارة والفتوة . وكذلك تعليق العجوز : فض فوك ، لقد ارجعت لي الشباب عودا على بدء . كم فيه من سخر يبثه الاوليين ومن حنين الى الشباب وما في الشباب من طيبات .

هذه السخرية التي نجدها في هذه القصة من قصص ابن دريد لا تخلو من فهم ذكي للطبيعة البشرية ، فالكبرى والوسطى تصلحان لان تكونا نموذجين للمتوصنات المتمسكات بالتقاليد ، المستحيات بمطالب القلب ، والصغرى تصلح لان تكون نموذجا لهذا النوع من الفتيات اللواتي يجدن من حقهن ان يطلبن الجمال والفتوة والقوة ، والعجوز خير ما يمثل هذه الصبوة الخالدة الى الشباب التى طالما جعلت من الشيب موضع هزء وسخر .

ثم اقرأ هذا الحديث لابن دريد عن مشاتمة وقعت بين رجل من العرب وزوجته " والله ان شربك لاشتفاف ، وان جمعتك لانجعاف ، وان شملتك لالتفاف ، تشبع ليلة تضاف ، وتنام ليلة تخاف ." (٢٠)

ففي هذه القطعة - بالاضافة الى السخرية الواقعية الواضحة - استعانة بالفن اللفظي في ابرازها ابرازا موحيا . فالصياغة التي صيغت فيها تثبت لنا ان ابن دريد يحاول هنا فوق ما حاوله القصص العادى في السخر من جهة المعنى .

على اننا نستطيع ان نقول مع ذلك ان السخرية الحقة لا تطل علينا كاملة في القصص البدوى حتى من خلال احاديث ابن دريد .

. . .

٣) - السخرية في النوادر

وثمة اصل آخر من اصول السخر هو ما يسمونه بالنوادر ، غير ان هذا الاصل ، اكثر من اى اصل سواه ، ناشئ نشأة مباشرة عن الاوضاع الجديدة التي خلقها تطور الفتح الاسلامي والدولة الاسلامية . وهو يعد فن حضري لا علاقة له بطرز البداوة في الحياة واساليبها في التصرف . ومن حقه ان يبحث على حدة كأصل مستقل من اصول السخر .

كان الحجاز اول البلدان تأثرا بالانقلاب الجديد . اذ تدفقت اليه الاموال والمؤن من كل صوب ، ودخلته افواج السبايا والرقيق ، وعرف التأنق والتفنن في الحياة المادية من طريقي الثراء والاحتكاك بالامم المغلوبة عندئذ نشأ في الحجاز نوع جديد من الحياة ان تكن قد قاومته لزمن شدة الحكم الراشدى فان السياسة الاموية اطلقت له العنان فيما بعد .

ولقد كان من جملة مظاهر الحياة الجديدة (المسرفة في الترف) ميل قوى ظاهر الى الظرف والتندر . اقترن ذلك بتشوء الغناء في الحجاز ، وقيام مجالس اللهو والمنادمة والشراب فيه اقترانا اشاع روح الحياة الجديدة في تلك البقعة عن بقاع الاسلام .

وقد ظهر في هذا الجو من مهيئات التندر والظرف ، طبقة من الناس عرفت بنوادرها وظرفها . هذه الطبقة هي الطبقة التي كانت تلازم اشراف المدينة ، او بعضهم ، فتضحكهم وتسامرهم وتتكسب بذلك عندهم .

غير ان هذه الطبقة من اصحاب النوادر التي شملت فيمن شملت من كانوا يسمون بالمختثين لم تبق مقصورة على المدينة ، بل قام شبهها فيما بعد في العراق وفي بغداد على الاخص ، ويذكر الجاحظ بعض اصحاب النوادر الذين نشأوا في المدينة ثم انتقلوا الى بغداد يتجرون فيها بالنادرة .

من اولئك ابو الحارث جميز الذى اتصل بمحمد بن يحيى البرمكي وعيسى بن جعفر وبالرشيد احيانا والذى ورد ذكره في عدة مواضع من البخلاء (٢١) ، ومنهم الهيثم بن مطهر الذى ذكره الجاحظ بالبيان والتبيين (٢٢) ومنهم مزيد الذى ورد ذكره في ثمار القلوب (٢٣) وغيرهم ممن نشأوا في المدينة وانتقلوا الى العراق .

على ان فن النادرة لم ينتشر ويعظم في بلد كما انتشر وعظم في بغداد . وقد بلغ هذا الفن من الاتساع والاهمية بحيث اصبح مادة طلب وعلم . وها هو الحصرى ينقل عن ابي العبر قوله : " كنا نختلف ونحن احداث الى رجل يعلمنا الهزل " (٢٤) .

وقد بلغ فن التندر في ايام المتوكل اوجه ، ويكفي ان نذكر شيئا عن تكسب امير من افراد البيت العباسي (هو ابو العبر الهاشمي) بفن النادرة حتى نصل الى فكرة واضحة عن مبلغ ما وصله هذا الفن من السعة والرواج . ويروى الاستاذ احمد امين ان رجلا تحدث الى آخر عن ابي العبر هذا قال : " الا يأنف الخليفة لابن عمه مما قد اشهر به وفضح عشيرته . " فقال له الاخر : " ويحك ؟ والله يا عم لو رأيت ما يصل اليه بهذه الحماقات لعذرته ." (٢٥)

لا بل ان المتوكل نفسه قد افسح له صدره - فيما يقال - فاتخذه سخريا له فكان يرميه بالمتجنيق في الماء ثم يطرح الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك ، ويعطيه ما لا يعطي الشعراء .

ويذكر ابن نديم في الفهرست في مقالته عن المغنيين والندماء والصفاعنة والصفادعة والمضحكين (٢٦) بعض الكتب التي الفت في النوادر ، منها كتب النوادر المتخيرة ، واختيار النوادر ، والندماء والمنادمات ومنادمة الاخوان وتسامر الخلان لاسحق الموصلي (٢٧) ومنها اخبار الندامى لحماد بن اسحق (٢٨) . ومنها كتاب الندماء

.../...

والجلساء لآل حمدون (٢٩) ومنها كتاب المزاح والمعاتبات لابن ابي طاهر (٣٠) . وكتاب المتظرفات والمتظرفين لابن عبدالله (٣١) ، واخبار الهرج والرج في اخبار المستعين والمعتز ، واخبار عقلاء المجانين لابن ابي مزهر (٣٢) ، وكتاب ذم الثقلاء لابن المرزبان (٣٣)، والفكاهة والدعابة ونوادر الفقهاء للحكيمي (٣٤) ، وجامع الحماقات ومأوى الرقاعات والنوادر والامالي لابي العبر الهاسمي (٣٥)، واخبار الغلمان واجار النساء لابن الشاه الظاهرى(٣٦)، ونوادر الغلمان والخصيان للمدادكي (٣٧) ، وترويح الارواح ومفتاح السرور والافراح لجراب الدولة (٣٨) ، وجامع الحماقات واصل الرقاعات ، والملح والمحمقين والمخرقة للكتنجي (٣٩) والنوادر والمضاحك للبرمكي (٤٠) .

ويذكر الفهرست في موضع اخر اسماء قوم من المغفلين وما الف فيهم من المؤلفات التي لم يعرف مؤلفها .او من هذه المؤلفات نوادر جحا ، ونوادر ابي ضمضم ونوادر سورة الاعرابي، كتاب نوادر ابن الموصلي ، ونوادر ابن يعقوب ، ونوادر ابي عبيد الحزمي ونوادر ابي علقمة ، ونوادر سيفويه .(٤١)

وليس من ذكر لهذه الكتب لا في بروكلمان (٤٢) ولا في حاجي خليفه (٤٣) .

وهكذا نجد ان معظم الكتب التي كتبت عن النوادر فقط قد ضاعت فاصبح المصدر الرئيسي الذى يجدر اعتماده هو الكتب الادبية . وفي الواقع نرى ان النوع الذى نطلبه من النوادر يعرض في طريقنا كلما جاء ذكر مجالس الطرب وحفلات الغناء في مصنفات (كالعقد (٤٤) ، والاغاني (٤٥) ، والكامل (٤٦) ، وزهر الاداب (٤٧) ، وذيل زهر الاداب (٤٨) ، ونهاية الارب (٤٩) ، وروج الذهب (٥٠) ، ونفح الطيب (٥١) او جاء ذكر الاحاديث التي كانوا يتفكهون بها من اسمار ومطايبات يرد بعضها عرضا في اخبار سير الرجال او عند سرد الحوادث التاريخية (ككتاب الامثال (٥٢) ، وتاريخ الرسل والملوك (٥٣) ، بدائع البدائه (٥٤) ، والعقد (٥٥) ، والاغاني (٥٦) والمستطرف (٥٧) ومحاضرة الابرار (٥٨) ، ومعجم الادباء (٥٩) وذيل زهر الاداب (٦٠) ، والكامل (٦١) ، ونهاية الارب (٦٢) ، والحيوان (٦٣) ، ونفح الطيب (٦٤) ،) او جاء ذكر الحمق والجنون او التطفل او التنبؤ (كالعقد (٦٥) ، وعيون الاخبار(٦٦) ، وذيل زهر الادب (٦٧) ، وروح الذهب (٦٨) ، ونهاية الارب (٦٩) ، والمستطرف (٧٠) ، والحيوان (٧١) ، او جاء ذكر العقل وحدة الذكاء وصدق الفراسة والاجوبة المسكتة (كالامثال (٧٢) ، ومجمع الامثال (٧٣) ، وبلوغ الارب (٧٤) ، والامالي (٧٥) ، وانباء نجباء الابناء (٧٦) ، وعيون الاخبار (٧٧) ، ونهاية الارب (٧٨) ورغبة الامل (٧٩) ، والمحاسن والمساوئ (٨٠) ، وروج الذهب (٨١) ، والعقد (٨٢) ، وثمرات الاوراق (٨٣) ، والاذكياء (٨٤) ، وغرر الخصائص الواضحة (٨٥) ، والنجوم الزاهرة (٨٦) ، ومعجم الادباء (٨٧) ، ونفح الطيب (٨٨)) .

وقد تجعل النوادر في بعض هذه الكتب في ابواب خاصة كما هو الحال في العقد (٨٩) ، حيث يستغرق كتاب الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين من الصفحة ١٩١ حتى الصفحة ٢٤٦ .

ويستغرق كتاب اللؤلؤ الثانية في الفكاهات والملح من الصفحة ٣٤٥ الى الصفحة ٣٩٦ .

وكذلك هو الحال في" نهاية الارب في فنون الادب" (٩٠) للنويري حيث يدور الباب الثالث من السفر الرابع باكمله على المجون والنوادر والفكاهات والملح في ٨٨ صفحة (١ - ٨٨) .

وفي كتاب " المستطرف في كل فن مستظرف " (٩١) ، يدور الباب السادس والسبعون على النوادر وفيه فصول يتناول كل منها نوادر طبقة من الطبقات .

ولكن من الخير ان نسجل ان النوادر لم تفرد دائما في ابواب او فصول . وانما كان الغالب في ايرادها ان يؤتى بها في ثنايا الكلام عن موضوع اخر . ولعل الجاحظ قد عبر بصراحة عن الحكمة من اتباع هذا النهج حين شرح طريقته في كتابة الحيوان ، وهي على كل حال ليست طريقته الخاصة ، وسنأتي على ذكرها في كلامنا عن الجاحظ .

وسنحاول فيما يلي ان نعرض بعض الامثلة على نوادر الطفيليين ثم ذوي الشذوذ العقلي ثم البخلاء مع العلم ان هذه لم تكن كل المواضيع التي ادار العرب عليها نوادرهم كما يظهر لنا من القليل الذي اوردناه عن الفهرست وكما يبدو من التصانيف العربية . والراجح انه كان لمعظم طبقات المجتمع وفئاته نوادر خاصة بها . ولربما كان هذا الاسم اكثر ما يطلق على الفكاهات والغرائب المتصلة بجماعة معينة وقلما تذكر النوادر بغير اضافة ، فيقال عادة : نوادر الاعراب ونوادر القراء المتنبئين ، ونوادر السؤال ونوادر النواتيه الى آخر ما هنالك من فئات (٩٢) . وها نحن نعرض بعض الشواهد على هذا الفن .

نوادر الطفيليين -

تحتل نوادر الطفيليين مقاما هاما في الادب العربي الضاحك . ويصعب على الدارس تفهم النادرة العربية وتطورها تفهما صحيحا دون الالمام بنوادر طبقة من الناس احترفت الاضحاك وجعلته مورد عيش وقد ذكرنا ان هؤلاء الطفيليين الذين نشأوا اول الامر في المدينة كانوا رواد النادرة العربية،وقد ذكر ابن عبد ربه ان اولهم طفيل العرائس ، واليه ينسبون (٩٣) .

.../...

قيل : " دخل طفيلي على قوم كانوا يأكلون فقال ما تأكلون فقالوا من بغضه سما فادخل يده وقال : الحياة حرام بعدكم ".(٩٤)

" ونظر رجل من الطفيليين الى قوم من الزنادقة يشار بهم الى القتل فرأى لهم هيئة حسنة وثيابا نفيسة فظنهم يدعون الى وليمة فتلطف حتى دخل في لفيفهم وصار واحدا منهم فلما بلغ صاحب الشرطة قال اصلحك الله لست منهم وانما انا طفيلي ظننتهم يدعون الى صنيع فدخلت في جملتهم فقال ليس هذا مما ينجيك مني ، اضربوا عنقه . فقال اصلحك الله ان كنت ولا بد فاعلا امر السياف ان يضرب بطني بالسيف فانه هو الذي ورطني هذه الورطة " (٩٥) .

فهذان المثلان هما من الادب الذي نستطيع ان ندرجه في باب البديهة (بالمعنى الذي حددناه في اول الرسالة) ففيهما يلعب عنصر العقل دوره . انظر الى " الحياة حرام بعدكم " تصدر عن طفيلي ، كم فيها من التضحية بل من التفاني ! وكم فيها من حذق ! ثم انظر الى طلب الطفيلي الاخر ان يضرب بالسيف بطنه ، كم فيها من دقة في البداهة وكم فيها من ضيق مضحك بهذه المعدة التي سببت للطفيلي طيلة حياته المشاكل وها هي تشرف به على الموت .

ثم ان البديهة ليست وحدها في فن النادرة عند الطفيليين . فان هناك الدعابة ايضا . مثال على ذلك ما روى عن اشعب . قيل له : " لو انك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر لكان اولى بك . قال : قد فعلت قالوا له ، فما حفظت من الحديث قال : حدثني نافع عن ابن عمر عن النبي (صلعم) قال : من كان فيه خصلتان كتب عند الله خالصا مخلصا . قالوا : ان هذا حديث حسن ، فما هاتان الخصلتان ، قال : نسي نافع واحدة ونسيت الاخرى ". (٩٦)

وزعموا ان " اشعب" خالف سكينة بنت الحسين في امر فعاقبته عقابا ظريفا . قال اشعب : " امرتني باحضار اربعمئة دينار ، فلما احضرتها امرت بابتياع خشب بثلثماية دينار ، وليس عندي ولا عند احد من اهل المدينة علم بما تأمر به ثم امرت بان يتخذ بيت من عود ، وجعلت النفقة عليه من مال اجر النجارين من المئة الباقية ثم امرت بابتياع بيض وتبن وسرجين بما بقي من المائة دينار بعد اجرة النجارين، ثم ادخلتني والبيض والتبن والسرجين في ذلك البيت وحلفت بحق جدها لا اخرج من ذلك حتى احضن ذلك البيض كله الى ان يفقس ففعلت ذلك ، ولم ازل احضنه حتى فقس كله ، فخرج الفراريج وربيت في دار سكينة وكانت تنسبهن وتقول : بنات اشعب ". (٩٧)

.../...

وتدخل هاتان النادرتان في فن الدعابة وان كانتا تقاربان الاضحاك الشبيه بالتهريج . ومن المتعذر ان نجد في النوادر فن الدعابة المتحرر تماما من هذه العناصر الهزلية الصريحة . فاغلب ما جاء من هذا القبيل اضحاك محض .

غير ان النادرة العربية لم تخل دائما عند الطفيليين من السخر .

قيل : " رؤي ابو الحارث جميز في ثياب متخرقة ، فقيل له : الا يكون محمد بن يحيى (قد اشترى لك قميصا) فقال : لو كان له بيت مملوء إبرا وجاءه يعقوب ومعه الانبياء شفعاء والملائكة صفا يطلب منه ابرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر ما اعاره اياها". (٩٨)

ومن السخر كذلك :

" ان اشعب ساوم رجلا في قوس عربية فسأله دينارا فقال له والله لو انها اذا رمي بها طائر في جو السماء وقع مشويا بين رغيفين ما اعطيتك بها دينارا". (٩٩)

ومن السخر :

" ان طفيليا اقبل الى صنيع فوجد بابا فدارتج ولا شك ولا سبيل الى الوصول فسأل من صاحب المصنع ان كان له ولد غائب او شريك في سفر فاخبر عنه ان له ولدا ببلد كذا فاخذ رقا ابيض وطواه وطبع عليه ثم اقبل متدللا فقعقع الباب قعقعة شديدة واستفتح وذكر انه رسول من عند ولد الرجل ففتح له الباب وتلقاه الرجل فرحا فقال كيف فارقت قال له باحسن حال وما اقدر ان اكلمك من الجوع فامر بالطعام فقدم اليه وجعل ياكل ثم قال له الرجل ما كتب كتابا معك قال نعم وازيدكانه من الكد ما كتب فيه شيئا . فقال : اطفيلي انت ؟ قال : نعم اصلحك الله ! قال : كل هنأك الله .

هذه النوادر الطفيلية الثلاث التي ذكرنا تتضمن في رأينا عنصرا من السخر غير ضئيل فالهزء السار غير المباشر هو ملء نادرة محمد بن يحيى الذى لا يخيط قميص يوسف بخيط وهو ملء كلام اشعب عن القوس الذى يوقع الطائر مشويا بين رغيفين وكذلكقوله اصلحك الله يقولها طفيلي بعد ان انطلت حيلته على ساذج ، كم فيها من الهزء وكم فيها من الحذق !

نوادر الشذوذ العقلي –

ومن النوادر التي لا يجوز لنا الا التعرض لها في باب خاص : نوادر الشذوذ العقلي ، فهي كما وصفها ابن عبد ربه حدائق نقة ، ورياض زاهرة ، لما فيها من طرافة ونادرة . فكأنها انوار مزخرفة او حلل منتشرة دانية القطوف الخ . . . . . "

وسنبحثها تحت العنوانين التاليين :

١) ـ الحمقى
٢) ـ عقلاء المجانين .

الحمقى ـ

" اما صفة الاحمق من حيث الافعال فترك النظر في العواقب وثقته بمن لا يعرفه وكثرة الكلام وسرعة الجواب وكثرة الالتفات والخلو من العلم والعجلة والخفة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخيلاء ، ان استغنى بطر ، وان افتقر قنط ، وان قال افحش ، وان سئل بخل ، وان سأل الح ، وان قال لم يحسن ، وان فعل له لم يفقه ، وان ضحك قهقه وان بكى صرخ "(١٠٠) وان اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس فلا يكاد يعرف العاقل والاحمق. فباب الحمق اذن هو اوسع ابواب النوادر والذى جاء فيه متعدد الالوان متشعب المواضيع . ولنكتف منه بما يحتوى على السخر .

يقال للابله السليم القلب " هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح والاحمق المؤذى هو من بقر سقر ".(١٠١)

ونظر بعض الحكماء الى احمق على حجر ، فقال : " حجر على حجر " (١٠٢) والقولان ـ ولا سيما الاول ـ يتضمن سخرية جميلة . وتقوم السخرية فيه على ان الاحمق قد يكون من بقر الجنة او بقر سقر ، غير انه يظل من البقر على كل حال ! وهو من باب الكلام غير المباشر ، الذى هو من جوهر السخر .

ومن السخر ايضا ما روى عن اعرابي صلى خلف امام فقرأ الامام الم نهلك الاولين وكان (صاحبنا) في الصف الاول فتأخر الى الصف الاخر فقرأ ثم نتبعهم الاخرين فتأخر فقرأ " كذلك نفعل بالمجرمين " . وكان اسم البدوى مجرما فترك الصلاة وخرج هاربا وهو يقول : " والله ما المطلوب غيرى"! (١٠٣)

ومن السخر ما روى عن مغفلة من العجائز قيل انها " جلست في طريق مكة الى فتيان يشربون نبيذا فسقوها قدحا فطابت نفسها فتبسمت فسقوها قدحا آخر فاحمر وجهها وضحكت فسقوها ثالثا فقالت : خبروني عن نسائكم بالعراق ايشربن النبيذ ؟ قالوا نعم قالت : زنين ورب الكعبة" (١٠٤)

والسخرية في قصة الاعرابي " مجرم " ظاهرة ، قوامها الهزء بهذه " الحكمة " التي جعلته يحتاط من الهلكة بالتأخر من صف الى صف في الجامع ، وبهذه النتيجة التي توصل اليها في النهاية اذ قرر انه هو لا سواه المطلوب .

.../..

واما سخرية الذى روى القصة بالعجوز فهي اخفى واخبث ، فقد عبرت هذه عما في نفسها ، بعد الكأس الثالث ، بالحديث عن نساء العراق " زنين ورب الكعبة " ! ففضحت نفسها .

عقلاء المجانين -

ولقد تندر العرب فيما تندروا على صنف من الناس اسموهم " عقلاء المجانين " . وللنيسابورى صاحب التفسير كتاب اسمه عقلاء المجانين ، ترجم فيه لهذا الصنف من الناس وافاض . وقد يكون السبب في اهتمام العرب بهذا النوع ما فيه من متناقضات ، واختلاط غريب بين الحكمة والغفلة ، والعلم والحمق ، والعظمة والمغامرة . وفي رأينا ان النوادر التي سيقت على عقلاء المجانين خليقة بان نوليها عناية خاصة ، لا لطرافتها فحسب ، بل لان العرب تحدثوا عن هؤلاء بتفكه عذب ، مشوب بكثير من الشفقة ، وكثير من التحسس بضعف الطبيعة البشرية . وان هذا الموضوع بالذات لهو في ما نعتقد احد المواضيع القليلة التي سخر فيها العرب برحمة وحنان .

يتضح من هذا اذا استعرضنا شيئا من النوادر التي تدور على احد مشاهير عقلاء المجانين بهلول بن عمر الكوفي ، (١٠٥)

من هذه النوادر ما روى عنه مع الرشيد قيل : حج الرشيد فذكر بهلولا حين دخل الكوفة فأمر باحضاره فقال البسوه سوادا وضعوا على رأسه قلنسوة طويلة واوقفوه في مكان كذا ففعلوا به ذلك . وقالوا اذا جاء أمير المؤمنين فادع له . فلما حاذاه الرشيد رفع اليه رأسه وقال يا امير المؤمنين اسأل الله ان يرزقك ويوسع عليك من فضله ، فضحك الرشيد .. فلما جازه الرشيد ... دفعه صاحب الكوفة في قفاه وقال اهكذا تدعو لامير المؤمنين يا مجنون ! قال بهلول اسكت ويلك يا مجنون فما في الدنيا احب الى امير المؤمنين من الدراهم ." (١٠٦)

وقيل : " رأيت بهلولا في بعض المقابر وقد ادلى رجليه في قبر وهو يلعب بالتراب . فقلت : ما تصنع هنا ؟ قال اجالس اقواما لا يؤذونني وان غبت لا يغتابوني " . (١٠٧)

وروى احدهم " رأيت الصبيان يرمون بهلولا بالحصى فادمته حصاة فقال شعرا منه :

رب رام لي باحجار الاذى لم اجد بدا من العطف عليه

فقلت له : تعطف عليهم وهم يرمونك ، فقال اسكت لعل الله يطلع على غمي ووجدى وشدة فرح هؤلاء فيهب بعضنا لبعض" . (١٠٨)

ويروى " ان الصبيان قد عبثوا به يوما فتفر منهم والتجأ الى دار بابها مفتوح فدخلها وصاحب الدار قائم له ضفيرتان فصاح به ما ادخلك داري فقال: يا ذا القرنين ان ياجوج وماجوج مفسدون في الارض ". (١٠٩)

وهذه النوادر التي رويناها عن بهلول ، باعتباره اشهر من عرفوا " بعقلاء المجانين " قد يرى فيها القارئ شيئا من السخر فما ابلغ ان يقول بهلول للرشيد اوسع الله عليك من فضله ثم يحتج لذلك بان ما في الدنيا احب الى امير المؤمنين من المال !

الا ان بين هذه النوادر ما يمثل نوعا من السخر يخالف اكثر ما عرفناه في النوادر الاخرى . فها هنا تنطوى الضحكة التي تبعثها فينا النادرة على شيء غير قليل من المرارة الخفية . اننا ، من غير شك ، نضحك من رجل يأنس بمقبرة . ولكن هل تضحك من رجل يذهب الى المقابر ليجالس اقواما لا يؤذونه !

واننا كذلك لنضحك من رجل يعبث به الصبيان في قارعة الطريق فلا يسخط عليهم ، ولكن هل نضحك من رجل يقول :

رب رام لي باحجار الاذى لم اجد بدا من العطف عليه !

ان هنا ، بلا ريب ، لهزؤا خفيا مضحكا ، اى سخرية حقه ، ولكنها سخرية قد بروئت من الخبث والقسوة ، واتصلت اتصالا وثيقا بهذا الضعف الذى ركب في الانسان منذ ان كان انسانا . فانت بقراءتك نوادر عقلاء المجانين ، لتلتمس في نفس الكتاب ، ونفسك ، رحمة وعذرا للشذوذ والضعف والزلل الذى ينطبع عليه ، او يتكلفه ، المجنون العاقل . وقد يبحث المرء طويلا عن مثل ذلك في سائر النوادر فلا يجد فيها شيئا .

<u>نوادر البخلاء -</u>

وقد تندر العرب ، فيما تندروا ، على البخل ، والبخلاء والعوامل التي دفعتهم الى ذلك كثيرة : منها التقاليد العربية في الضيافة والكرم ومنها التفاخر مع بقية الامم ، ومنها ان البخيل كان يمثل في العصور الماضية ما يمثله الراسمالي في الوقت الحاضرة : اى تجمع المال في يد شخص على حساب الجماعة ، ومع ان الجاحظ - فيما نعلم - هو اول من عقد كتابا بكامله على نوادر البخلاء الا ان افرادا كالاصمعي وابي الحسن المدائني وابي عبيده قد سبقوه الى حديث البخل والبخلاء وفي كتاب البخلاء نفسه اشارات عديدة الى جماعة اخذ عنهم احاديث البخل .

ومن نوادر البخل " ان رجلا مروزيا اشتكى صدره من سعال فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع اخف عليه من الدواء .

.../...

ففيما هو يماطل الايام ويدافع الالام اتاه بعض اصدقائه فوصف له ماء النخالة وقال انه يجلو الصدر فامر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها فجلا صدره ووجده بعصم ، فلما حضر غداؤه امر به فرفع الى العشاء وقال لامرأته اطبخي لاهل بيتنا النخالة فاني وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدر فقالت : لقد جمع لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله ".(١١٠) .

ومن النوادر : ان رجلا اشترى دارا وانتقل اليها فوقف ببابه سائل فقال له يفتح الله عليك ثم وقف ثان فقال له مثل ذلك ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك ، ثم التفت الى ابنته فقال : ما اكثر السؤال في هذا المكان! قالت : يا ابت ما دمت مستمسكا لهم بهذه الكلمة فما تبالي كثروا ام قلوا".(١١١)

ومن نوادر ابي محمد الحزامي " ابخل من براء الله واطيب من براء الله " كما يصفه الجاحظ في الحيوان (١١٢) النادرة التالية : " قيل : قلت لابي محمد الحزامي مرة : قد رضيت بان يقال : عبدالله بخيل . قال : لا اعز عند الله من هذا الاسم ، قلت : ويكف ، قال : لا يقال فلان بخيل الا وهو ذو مال فسلم الى المال وادعني باى اسم شئت ، قلت : ولا يقال فلان سخي الا وهو ذو مال فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال . واسم البخل يجمع المال والذم . فقد اخترت اخسهما واوضعهما ، قال : وبينهما فرق . قلت فهاته ، قال : في قولهم بخيل تثبيت لاقامة المال في ملكه ، وفي قولهم سخي اخبار عن خروج المال من ملكه . واسم البخيل فيه حفظ وذم واسم السخى اسم فيه تضييع وحمد ... وما اقل غناء الحمد - والله - عنه ، اذا جاع بطنه ، وعرى جلده ، وضاع عياله وشمت به من كان يحسده ".(١١٣)

هذه بعض الامثلة عن نوادر البخلاء : ولعل فيها ، كما قصدنا في اختيارها ، شيئا من السخر . انظر في النادرة الاولى ، نادرة البخيل الذى استمراء ماء النخالة ، قوله امرأته : الحمد لله ، لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء ، اليست سخرية كلها ! وماذا في السخر ابعد من ان يحمد الله احد خلقه على انه قد جمع غذاء البخيل ودواءه في النخالة !

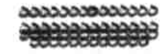
ثم قوله البنت في النادرة الاخرى ، وقد شكا اليها ابوها كثرة السائلين : يا ابت ما دمت مستمسكا به " يفتح الله عليك " فما تبالي كثر السائلون ام قلوا .

ثم نادرة ابي محمد الحزامي : ما ابرع من قال لي ، البخل مال وذم والكرم مال وحمد ، لقد عرف كيف يسخر احسن السخر من منطق كل بخيل .

واذا امعنا في تحليل طبيعة السخر في نوادر البخلاء وجدنا ان اقوى مظاهره هذا المنطق الذى يبدو للوهلة الاولى سديدا في تصرف البخيل .

٠٠٠/٠٠٠

فجميع ما كتب في البخل او معظم ما كتب على الاقل ، متسم بهذه السمة المنطقية الشكلية . وقد وفق من كتبوا في البخل ولا سيما الجاحظ الى بلوغ مستوى فني راق في هذا الباب لتوصلهم الى تصوير الطريقة التي يعمل فيها عقل البخيل : يعمل في جد مضحك وثقة بالسداد عجيبة ، واطمئنان الى الصواب لا يعتوره شك .



.../...

هامش الفصل الثاني

١) - حسين ، طه ، الادب الجاهلي ، مطبعة فاروق القاهرة ١٩٣٣ ، ص ٣٤

٢) - Nicholson, Alitterary History of the Arabs, London I923, P.3I6

٣) - الضبي ، المفضل بن محمد ، امثال العرب ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ، سنة ١٣٠٠ هـ ٤٨

٤) - الميداني ، ابو الفضل احمد ، مجمع الامثال ، المطبعة الخيرية ، مصر ١٣١٠ هـ ، الجزء ١ ، ٢٢٧

٥) - الضبي ، امثال العرب ، ٤٥

٦) - محمد احمد فهمي المشرع من المجمع ، او تهذيب مجمع الامثال ، مطبعة الحجازى مصر ١٩٤٩ ، ٣٣٥

٧) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جزء ٣ ، ص ١٨

٨) - محمد ، احمد فهمي ، المشرع من المجمع ، ص ٣٢

٩) - الضبى ، امثال العرب ، ص ٤٥

١٠) - الميدانى ، مجمع الامثال ، بولاق ، ج ٧

١١) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، بولاق ، جزء ٣ ، ص ١٦

١٢) - الضبى ، امثال العرب ، ص ٧

١٣) - الضبى ، امثال العرب ، ص ٦٩

١٤) - فريحه ، انيس ، الامثال العامية ، مجلة الابحاث ، السنة الثالثة ، ص ١٦٧

١٥) - فريحه ، انيس ، الامثال العامية ، مجلة الابحاث ، السنة الثالثة ، ص ١٦٧

١٦) - فريحه ، انيس ، الامثال العامية ، مجلة الابحاث ، السنة الثالثة ، ص ١٦٧

١٧) - الجاحظ ، البيان والتبيين ، المطبعة الرحمانية ١٩٣٢ ، الجزء ٣ ، ٢٢١

١٨) - مبارك ، زكي ، النثر الفني في القرن الرابع ، دار الكتب المصرية ١٩٣٤ الجزء ، ٣ ، ٢٢٠

١٩) - القالي ابو علي ، كتاب الامالي ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ، الجزء الاول صفحة ١٦

٢٠) - القالي ، كتاب الامالي ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ، جزء ٣ صفحة ١٠٤

٢١) - الجاحظ ، البخلاء ، دار الكاتب المصرى ١٩٤٨ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٨٥ ، ١٦٣

٢٢) - الجاحظ ، البيان والتبيين ، جزء ٢ ص ٥١

٢٣) - الثعالبى ، ابو منصور ، ثمار القلوب ، طبع القاهرة ، صفحة ٣٧٢ - ٤١٢

٢٤) - الثعالبى ، ثمار القلوب ، صفحة ٣٥ - ٣٦

٢٥) - امين احمد ، فيض الخاطر ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٢ ، الجزء ٢ ، ٢٨

.../...

٢٦) - ابن النديم محمد بن اسحق ، الفهرست ، المطبعة الرحمانية مصر سنة ١٣٤٨ هـ ، ٢١٠ .
٢٧) - ابن النديم ، محمد بن اسحق ، الفهرست ، ٢٠٢
٢٨) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢٠٤
٢٩) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢٠٧
٣٠) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢٠٩
٣١) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢١١
٣٢) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢١١
٣٣) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢١٤
٣٤) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢١٦
٣٥) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢١٨
٣٦) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢١٨
٣٧) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢١٨
٣٨) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢١٩
٣٩) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢١٨
٤٠) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢١٩
٤١) - ابن النديم ، الفهرست ، ٢٣٥
٤٢) - Brockelman Karb, Geschichte Der Aribishen Litterature Leideu, 1942
٤٣) - حاجي خليفه ، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، استنبول ١٣٦٠
٤٤) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ،
٤٥) - الاصبهاني ، ابو الفرج ، الاغاني ، طبعة بولاق .
٤٦) - المبرد ، الكامل في اللغة ، طبعة ليبزك ١٨٧٤
٤٧) - الحصرى ، ابو اسحق القيرواني ، وهر الاداب وثمر الالباب ، المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٥ .
٤٨) - الحصرى، ذيل زهر الاداب .
٤٩) - النويرى ، شهاب الدين ، نهاية الارب في فنون الادب ، دار الكتب المصرية ١٣٣٤
٥٠) - المسعودى ، مروج الذهب ، المطبعة الازهرية ١٣٠٢
٥١) - المقرى ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ،طبع ليدن
٥٢) - القالي ، ابو علي ، الامالي
٥٣) - الطبرى ابن جرير ، تاريخ الامم والملوك ، المطبعة الحسينية ١٣٣٦
٥٤) - الازدى ، علي بن ظافر ، بدائع البدائه ، بولاق ١٢٧٨
٥٥) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد
٥٦) - الاصبهاني ابو الفرج ، الاغاني ، بولاق ١٢٨٥

.../...

٥٧) - الابشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، بولاق ١٢٩٢
٥٨) - ابن عربي ، محاضرة الابرار ومسامرة الاخبار ، مطبعة السعادة ١٣٢٤
٥٩) - الحموي ياقوت ، معجم الادباء ، القاهرة ١٩٠٩ - ١٩١٦
٦٠) - الحصري ، ذيل زهر الاداب ،
٦١) - المبرد ، الكامل في اللغة ،
٦٢) - النويري ، نهاية الا رب ،
٦٣) - الجاحظ ، الحيوان ، المطبعة الرحمانية ١٩٣٨
٦٤) - المقرى ، نفح الطيب ،
٦٥) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ،
٦٦) - ابن قتيبه ، عيون الاخبار
٦٧) - الحصري ، ذيل زهر الاداب
٦٨) - المسعودى ، مروج الذهب
٦٩) - النويرى ، نهاية الارب
٧٠) - الابشيهي ، المستطرف في كل مستظرف ، بولاق ١٢٧٠ هـ
٧١) - الجاحظ ، الحيوان ، طبعة التقدم ١٩٠٦
٧٢) - الميدان ، مجمع الامثال
٧٣) - الميداني ، مجمع الامثال
٧٤) - الالوسي ، بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، مطبعة دار الاسلام بغداد ١٣١٤
٧٥) - القالي ، ابو علي ، الامالي
٧٦) - الصعلبي ، ابن ظفر ، انباء نجباء الابناء ، مطبعة التقدم (بدون تاريخ) مصر
٧٧) - ابن قتيبة ، عيون الاخبار
٧٨) - النويرى ، نهاية الارب
٧٩) - المرصفي ، رغبة الامل ، مطبعة النهضة ١٩٢٧
٨٠) - البيهقي ابراهيم بن محمد ، المحاسن والمساوئ ، طبعة لبزج ١٢١٨
٨١) - المسعودى ، مروج الذهب
٨٢) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد
٨٣) - الحموى ابن حجه ، ثمرات الاوراق في المحاضرات ، المطبعة الوهبية ١٣٠٠
٨٤) - ابن الجوزى ، اخبار الاذكياء ، المطبعة اليمنية ١٣٠٦
٨٥) - الوطواط (ابو اسحق) ، غرر الخصائص الواضحة و عرر النقائص الفاضحة ، بولاق ١٢٨٤
٨٦) - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة
٨٧) - الحموى ياقوت ، معجم الادباء
٨٨) - المقرى ، نفح الطيب
٨٩) - ابن عبد ربه ، العقد

.../...

٩٠) ـ النويري ، شهاب الدين احمد ، نهاية الارب في فنون الادب

٩١) ـ الابشيهي ، المستطرف في كل فن مستطرف .

٩٢) ـ الابشيهي ~~[illegible]~~
ج ٢ ، ٣٠٦

٩٣) ـ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ٢٢٧

٩٤) ـ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ٢٣٩

٩٥) ـ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ٢٤٢

٩٦) ـ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ٤٤٢

٩٧) ـ الاصبهاني ، الاغاني ، جزء ١٤ ، ١٦٧

٩٨) ـ الثعالبي ، ثمار القلوب ، طبعة ليدن ، ٣٥ ـ ٣٦

٩٩) ـ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ، ٣٣٨

١٠٠) ـ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ، ٣٣٨

١٠١) ـ الابشيهي ، المستطرف ، الكتاب الاول ٦٢

١٠٢) ـ الابشيهي ، المستطرف، الكتاب الاول ٢٠

١٠٣) ـ الابشيهي ، المستطرف ، الكتاب الاول ٢٠

١٠٤) ـ الابشيهي ، المستطرف ، الكتاب ٢٢ ، ٢٩٧

١٠٥) ـ الابشيهي ، المستطرف ، الكتاب ٢٣ ، ٢٩٨

١٠٦) ـ الامين محسن ، اعيان الشيعة ، دمشق ١٩٣٦ ـ ١٩٥٠ ، جزء ١٤ ، ٢٢٣

١٠٧) ـ الكتبي ، محمد بن شاكر ، فوات الوفيات ، بولاق ١٢٨٣ ، ج ١ ، ١٠٥

١٠٨) ـ الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ١٠٥

١٠٩) ـ الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ١٠٥

١١٠) ـ الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ١٠٥

١١١) ـ الابشيهي ، المستطرف ، ج ١ ، ٢٠٦ ـ ٢٠٧

١١٢) ـ الجاحظ ، الحيوان ، ٧ ، ٦٩

١١٣) ـ الجاحظ ، الحيوان ، ج ٧ ، ٦٦

١١٤) ـ الجاحظ ، البخلاء ، ٥٥

= = = = = = =

الفصـــــل الثالـــــــث

نضـــج الســـخر

١) ـ تقـــدم النثـــر ،
٢) ـ تـنوع الحياة الاسلامية ،
٣) ـ الشـــــعوبيـــــة و
٤) ـ نمـو الفكـر الفلسـفي ،

ان من يحاول ان يقفـز ، في دراســـة الســـخر ، من الصـورة البـدائيـة الـــتى نعـرفها لـه فـي اصـوله الاولى (الامثـال ، القصـص البـدوى ، النوادر) الى صـورته المكتملـة الـتى يعكسـها لـنا الجاحـظ ، تأخـذه الدهشـة لما يـرى من فـرق شـاسـع ، واختـلاف كبـير ، وقـد يصّح ، في هـذا القيا س ، ان يتحـدث متحـدث عن شـيء اسمه " المعجـزة الجاحظـية ". ومع ايماننا بان عبقـرية الجاحـظ هي من اهم العوامـل في انضـاج الـسخر الفـنى في الادب العـربي ، الا اننا نعتقـد ان هـذا النضـج لم يـتم في فراغ ، وانما تم في شـروط معينة ، وتحت موءثرات قائمـة . وسـنحاول ان نـذكـر الان بعـض هـذه العوامـل ، على سـبيل التمثيـــل لا الحصـر .

• • •

١) تقـــدم النثـــر ـ

كان الادب الجاهلي بمثابـة تمهيـد للعصـور الادبيـة الـتي نشـأت بعده. وكان مفتقـرا افتقـارا واضحـا الى النثر الفـنى . ولعـل اكمـل ما عـرفت الجاهلـّـية من فـنون ادبيـة هـو الشعر .(١)

ويفسـر بعضهم عظـم دهشـة العـرب من بيان القـرآن بتخلـف العـرب في النثر فيذلـك الوقـت .(٢)

والظاهـر ان النثر الفـنى لم يطـرأ عليه تغـير يـذكـر طيلة المدة مـن ابتدا ء الاسـلام الى عهـد عبـدالحميـد الكاتـب . (٣) فاقـوال النبى والصحابة وخطـب الامويين ورسـائلهم جميعا مرتبطـة بمزايا لغوية متشـابهة ومطـبوعة بطابـع انشـائي مشترك من ايجاز وبعـد اشـارة وبسـاطة في التركيـب ، وعـدم تبســط في المعاني .

ويقول القلقشـندى في هـذا التطـور : " ولم يزل امر المكاتبات في الدولة الاموية جاريا على سنن السـلف الى ان ولي الوليـد بن‌عبدالملك ، فجود القراطيـس وجلـل

.../...

الخطوط وفخم المكاتبات وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك الاعصر بن عبدالعزيز ويزيد بن الوليد فانهما جريا في ذلك على طريق السلف ثم جرى الامر من بعدهما على ما سنه الوليد الى ان صار الامر الى مروان بن محمد آخر خلفائهم . وكتب له عبدالحميد بن يحيى ، وكان من اللسن والبلاغة على ما اشتهر ذكره فاطال الكتب واطنب فيها حيث اقتضى الحال تطويلها ، والاطناب فيها ، حتى يقال انه كتب عن الخليفة وقر جمل ، واستمر ذلك فيما بعده ".(٤)

وبالطبع ، يكون من السخف ان نعتقد ان مجرد ظهور عبدالحميد قد حول النثر العربي فجأة من حال الى حال ، بل ان هذا الكاتب انما اقر طريقة التبسط والازدواج وطبع فن الرسائل بها ، فنهض بالنثر الفني نهوضا عظيما .

على ان تطور فن الرسالة لم يكن العامل الاوحد في تطويع النثر العربي على ما اصبح عليه فيما بعد ، فهناك الترجمة التي لعبت دورا عظيما في تقدم النثر مع ابقائه متحررا من التصنع المفرط .

ومن المعقول جدا ان يكون لحركة الترجمة اثرها العظيم في تطوير النثر ، فهي تتناقض ضرورة مع التعقد والحوشية ، وتهدف اول ما تهدف الى السلاسة والجزالة . يكفي ان نذكر اسم ابن المقفع كواحد من اوائل المترجمين من الفارسية حتى يتضح ما نريد ان نقول . فطريقته – على حد تعبير كرد علي – معروفة " هو يمشي من صفاء الطبع على عرق عريق ويحاول ابدا نقل فكرة الى من يتلو كلامه واضحا جليا فكأنه يتوخى الافهام اولا ، وبلاغته في كثرة افهامه "(٥) وهذا هو روح الترجمة الراقية التي خدمت النثر العربي خدمة كبرى ، وساهمت باعظم الاقساط في تقوية النثر كأداة صالحة للتعبير الجيد عن الافكار .

وهكذا نجد ان النثر العربي قد اصبح ، منذ الصد الاول من العصر العباسي ، قادرا على ان يعير نفسه للسخر الفني ، ولم يعد ما يمنع النثر ، من حيث طبيعته ومادته ، من ان يصلح على قلم ساخر موهوب ، لاداء ارفع انواع السخر . واذا كان الجاحظ يمثل نضج السخر كما نميل الى الاعتقاد ، فان هذا الكاتب العظيم قد نبغ في زمن كانت الاداة التعبيرية فيه قد طاعت لاغراض العقل والروح الى حد بعيد . وما نظن ان الجاحظ كان يأتي بما اتى به في هذا الفن لو انه خرج على العالم ومظاهر النثر لا تتعدى الخطب ، والاحاديث ، والقصص والنوادر .

غير ان تقدم النثر وان كان يتيح لروح السخر ان يظهر ، فانه لا يحتم على الاديب ان يكون ساخرا . ولا بد من ان يكون ثمة عوامل قد اعانت هذه الروح ، الموجودة من قبل طبعا ، والممثلة في الاصول التي سبق ذكرها ، لان تقوى وتشتد بحيث تصل الى المستوى الذي نراها عليه عند الجاحظ . فروح السخر لم تنضج في الادب العربي لان النثر في نضج ، بل انها نضجت بفضل مؤثرات مختلفة قد عملت على انضاجها انضاجا قويا .

.../...   . . .

٢) - تنوع الحياة الاسلامية -

ومن العوامل التي ساعدت على انضاج السخر تنوع الحياة في شتى مظاهرها العقلية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية بعد الفتح الاسلامي فقد ضمت المملكة الاسلامية عناصر مختلفة ، واما متعددة ." لكل امة من هذه الامم مزايا وصفات عرفت بها ، فشهر العرب بالقدرة على الشعر ... واشتهر اهل السند بالصيرفة .. واشتهر اهل مرو بالبخل ... واشتهر اليمانيون بالعشق ، والحجازيون بالدل واشتهر العرانيون بالظرف".(٦)

وكانت " ميزة سكان الصين الصناعة ... واليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل ، وميزتهم الحكم والاداب ، والعرب لم يكونوا تجارا ولا صناعا ، ولا اطباء ولا حسابا ، ولا اصحاب فلاحة ... وجهوا قولهم الى قول الشعر ... وميزة آل ساسان في الملك والسياسة ، والاتراك في الحرب ".(٧)

اما الاهواء السياسية والميول العصبية فحدث عنها ولا حرج ... " الكوفة شيعية ... والبصرة عثمانية ، والجزيرة حرورية مارقة واعراب كاعلاج ومسلمون في اخلاق نصارى . واما اهل الشام فليس يعرفون الا آل ابي سفيان ، وطاعة بني مروان ... واما اهل مكة والمدينة فقد غلب عليها ابو بكر وعمر . واما خراسان فان هناك العدد الكثيرة والجلد الظاهر ...".(٨)

" كذلك كان في كل ايمة من هذه الامم طوائف مختلفة لها شعائر ... وخلافات في الاداب ... ودع عنك الاختلافات الاقليمية ... فامة تعيش في جبل ... واخرى في سهل ، وجو بارد شديد البرد ، وحار شديد الحرارة ".(٩)

وقد تجاورت كل هذه العناصر ، وتمازجت وتوالدت ، فانس ذوق بذوق ، ونبا ذوق عن ذوق ، وائتلف فكر بفكر ، واختلف فكر وفكر ، وذهب الناس في تقسيم العادات والتقاليد والمفاهيم مذاهب تتفق حينا ، وتتصارع احيانا ، فاذ محصل ذلك كله اشياء كثيرة في الاجتماع والدين والسياسة والاقتصاد والادب والفن ... واذا العقل الاسلامي في هزة مبدعة وتجدد خلاق هو - من غير ريب - خير جو يزدهر فيه السخر وتنمو فيه روح النقد ، اذ لا شيء ينضج السخر ويشحذ النقد مثل تثقيف العقول والقلوب والبصر والبصائر بضروب لا تنتهي من الاحوال والمشاهد .

وقد كان مثل هذه الحياة مفقودا في الجاهلية ، او كالمفقود ، وعلى الرغم من ان العرب تعرفوا - قبل الاسلام - الى الامم الاخرى من طريق التجارة ، ومن طريق الغساسنة والمناذرة ، ومن طريق المبشرين اليهود والنصارى الذين كانوا يغذون السير في الجزيرة ، على الرغم من وجود هذا الاتصال ، فان الرقابة كانت هي الصفة العامة للحياة العربية - ولا سيما الحياة البدوية - التي كانت تدور (شأنها ابدا) في دائرة مغفلة تعرفها لها في الادب العربي .

.../...

هذا التنوع في الحياة العربية ، بعد الاسلام ، وجد الفتح . ولكنه قوى واشتد واكتسب معنى جديدا بمضي الوقت الكافي لتكون شيء من وحدة الحياة بين هذه العناصر . فان تعاليم الدين الجديد ، انتشار اللغة العربية ، وظهور المولدين ، وسياسة العباسيين الرحبة تجاه الموالي ، كل هذه عوامل قد اوجدت ، مع التنوع ، حدا ادنى من الوحدة يسمح بان يدخل الحياة الاسلامية جو من التفهم لعقلية الغير وعاداته وطرقه في التفكير والتصرف . وبالطبع من شأن هذا التفهم ، مضافا الى تنوع الحياة ، ان يهيء لروح السخر في الادب العربي مادة ثمينة ، اذ لا يكفي ان تصطدم بالجديد والظريف لسخر منه ، بل يقتضي ان تتفهم هذا الجديد، وهذا الطريف ، بعض التفهم حتى تنفحك روح السخر بما عندها .

ان الانسان عدو ما جهل ... وليس العداء هو الجو الامثل لنشوء السخر . وانا الجو الامثل ذلك الذى يتفتح فيه الانسان على متناقضات وغرائب وطرائف في الكون والحياة والناس تفتحا سارا ، منعشا ، ويستحيل ان يكون هذا التفتح تاما الا في محيط كالمحيط الذى عرفه المسلمون بعد ان عملت عوامل التوحيد عملها او بعض عملها في ما اسماه احمد امين " عملية المزج بين الامم ".(١٠)

ان الجاحظ الذى يمثل نضج السخر في الادب العربي يفيض بالشواهد على اثر تنوع الحياة الاسلامية واثر روح التفهم للعناصر الاخرى في اذكاء روح السخر . ويكفي ان نشير اشارة الى ما كتبه هذا الكاتب العظيم " في مناقب الترك وعامة اهل الجند" و " فخر السودان على البيضان ".(١١) وما اورده في الحيوان من مذاهب خباب ، والجهجاه وصحصح (١٢) التي قال انه جمعها في " كتاب المسائل " (١٣). يكفي ان نذكر ذلك لندلل على ما نقصده بالتنوع والتفهم اللذين دخلا الحياة الاسلامية ، فكانا مؤتلفين ومجتمعين من عوامل انضاج السخر .

. . .

٣) - الشعوبية -

ومن العوامل التي لا بد ان تكون قد فعلت فعلها في انضاج روح السخر، النزعة الشعوبية الملتبسة في بعض الاحيان بالسياسة العباسية . فانه من طبيعة الامم التي تغلب على امرها ان تعمد الى السخرية من العنصر الغالب تنفيسا عن كربها ، وارضاء لشعورها بالنقص . ومن المعقول جدا ان نشاهد - ما شاهدناه بالفعل - من نزعة قوية عند الشعوبيين للغض من شأن الحياة العربية ، والزراية ب" جشوبة عيشهم وخشونة ملبسهم " مع تسخير التراث الادبي من شعر وقصص ورواية لخدمة هذا الغرض وقد وجدوا في ما روى عن العرب من هجاء بعضهم بعضا مادة كبيرة اعانتهم على ذلك .

اضف الى ذلك ان السياسة العباسية الرسمية كانت تقضي - دائما - بتشجيع السخر من بني امية . فكانت النزعات الشعوبية واهواء الحكام تتعاون تعاونا

.../...

وثيقا على تشجيع الهزء بالدولة الاموية ، وهي التي تمثل ، اكثر من سواها ، الروح العربية ، والمناقب العربية .

ويورد الدكتور طه الحاجري ، تثبيتا لهذا الرأي ، قصة حكاها عن الطبري قال : " ذكر محمد بن عمر عن حفص مولى مزنية عن ابيه قال : كان هشام الكلبي صديقا لنا ، فكنا نتلاقى ، فنتحدث ، ونتناشد ، فكنت اراه في حال رثة ، وفي املاق ، على بغلة هزيلة . فما راعني الا وقد لقيني يوما على بغلة شقراء من بغال الخلافة ، وسرج ولجام من سروج الخلافة ولجمها ، في ثياب جدد ، ورائحة طيبة . فاظهرت السرور ، ثم قلت له : ارى نعمة ظاهرة ! قال لي : نعم ، اخبرك عنها ، فاكتم :

بينما انا في منزلي منذ ايام بين الظهر والعصر اذ اتاني رسول المهدي فسرت اليه ودخلت عليه وهو جالس خال ليس عنده احد ، وبين يديه كتاب ... فقال : خذ هذا الكتاب فاقرأه ، ولا يمنعك ما فيه مما تستفظعه ان تقرأه . قال : فنظرت في الكتاب فلما قرأت بعضه استفظعته ، والقيته من يدي ولعنت كاتبه ، فقال لي : قد قلت لك آن استفظعته فلا تلقه ، اقرأ بحقي عليك حتى تأتي على اخره . قال : فقرأته ، فاذا كتاب قد ثلبه (فيه) كاتبه ثلبا عظيما عجيبا . فلم يبق له فيه شيئا . فقلت : يا امير المؤمنين من هذا الملعون الكذاب قال : هذا صاحب الاندلس قال : قلت فالثلب والله يا امير المؤمنين فيه وفي ابائه وفي امهاته ثم اندرات اذكر مثالبهم قال : فسر بذلك وقال اقسمت عليك اما امليت مثالبهم كلها على كاتب . قال : ودعا بكاتب من كتاب السر فجلس ناحيته وامرني فصرت .... وامليت عليه مثالبهم ، فاكثرت ، فلم ابق شيئا ، حتى فرغت من الكتاب ... " (١٤)

وهكذا نجد ان الشعوبية ، مع ما عاونها من اهواء الحكام ، كانت من العوامل التي اتجهت بالادب متطوعا حينا وماجورا حينا ، الى ان يكون ادبا يكثر فيه الهزء والاستهانة ، وبالتالي ادبا مؤهلا لان تظهر فيه روح السخر . ومن الذي يستطيع ان يتصور ان الجاحظ الذي يشير صراحة في البخلاء (١٥) الى كتاب عقده برأسه على الشعوبية ، قد نجا من التأثر بهذا العامل في سخره ! ومن الذي يستطيع ان يتصور ان الكتابة الساخرة عن البخل لم يوجهها التفاخر العنصري وان مواضيع التلصص والصعلكة التي كتب فيها كثيرا في ذلك الوقت ظلت بعيدة عن العامل الشعوبي ! وكذلك من يمكنه فصل هذا العامل عما تذخره به الاصول العربية القديمة من الروايات التي ترمي معاوية بالنهم (١٦) وترمي عبد الملك بالبخل (١٧) وتسوق على كل خليفة اموي ، بل كل عامل من عمال بني امية ، الطعن والتشهير .

وبالاختصار فان الجو الشعوبي ، العباسي ، كان من غير ريب من العوامل في انضاج السخر بالصورة التي بلغها عند الجاحظ ، ولا بد من التعرض له اذا اردنا ان نسجل تاريخ السخر .

.../...

٤) - نمو الفكر الفلسفي -

مما لا شك فيه ان نمو التفكير الفلسفي كان من جملة الامور التي ساعدت ، بطريقة مباشرة او غير مباشرة ، على نضج فن السخر . فمن طبيعة هذا التفكير ان يشيع حوله جوا من التحرر العقلي ان لم نقل جوا من الشك بل الكفر في الكثير من المفاهيم والمعتقدات . ولا نغالي اذا قلنا ان هذا الجو من التحرر - بله الشك والكفر - هو اصلح الاجواء لان يزدهر فيه السخر .

وقد اوردنا - في الفصل الاول - كلمة لاناتول فرانس تعكس لنا حقيقة اصيلة في روح السخر . فقد اتهم هذا الكاتب الشهداء - الشهداء اطلاقا - بالتعصب الذي يضعهم وجلاديهم في طائفة واحدة ، وقرر ان خطئتهم التي لا تغتفر انما هي في انهم لم يعرفوا السخر . (١٨) واذا كان في مثل هذا القول ما يدل على شيء ، فان فيه معنى اقتران السخر بشيء من روحية التساهل الفلسفي الذي يبرر الطريقة الساخرة .

ومن الصعب في رأيي - ان نشهد سخرية في عصر كالعصر الراشدي مثلا ... اما وقد تفلسف العقل في زمن الجاحظ وقبله ، وجاء مع التفلسف روح الشك والتحرر والتساهل ، فلا غرابة في ان ينشأ فن السخر .

يقول الدكتور طه حسين : " لقد اثرت الهيلنية في الادب العربي البحت عن طريق غير مباشر فتأثيرها اولا في متكلمي المعتزلة الذين كانوا جهابذة الفصاحة العربية غير مدافعين ، والذين كانوا يتضلعهم من الفلسفة اليونانية موسسي البيان العربي حقا . نعم لا نستطيع ان نقطع بانهم كانوا مطلعين على البيان اليوناني لعهدهم ، ولكن لا شك ان تفكيرهم الفلسفي قد اعدهم لان يتصوروا صناعة البيان كما كان يتصورها اليونان من بعض الوجوه" . (١٩)

وهذا الاثر الفلسفي الذي يتحدث عنه الدكتور طه حسين بكثير من الاصابة ظهر في السخر كما ظهر في سواه . فالطريقة الفلسفية في الجدل - المتمثلة بالنزعة الكلامية التي عرفها الفكر العربي - قد لا تكون بعيدة كل البعد عن فن السخر ، اذ ما هو الكلام بل ما هو المنطق ، ان لم يكن اظهار المتناقضات التي ينطوي عليها كلام الخصم ؟ وهذا اللون الذي ظهر عند جميع المتكلمين وعند السوفسطائيين خاصة من فلاسفة اليونان ، ما اقربه الى اسلوب السخر ! اذ ليس السخر ، بمعنى ما ، الا التوسل بالمتناقضات والمفارقات الى غرض الاضحاك . والمتكلم بالنسبة الى الفلسفة يكاد لا يكون غير الساخر بالنسبة للفن .

وحتى بين الفلاسفة اليونانيين انفسهم ، الم تعرف طريقة سقراط التساؤلية في الكشف عن الحقيقة بالسخرية السقراطية ؟

.../...

الم يعرف عن Evenus de Paros انه كان موهوبا في ابتداعه للمدائح والاهاجي غير المباشرة (٢٠) وهما صورتان للسخرية التي كثيرا ما تقوم على هجاء كالمدح ومدح كالهجاء .

الم تقم المدرسة السوفسطائية باجمعها ، وهي غير المؤمنة بامكان التعرف الى الحقيقة ، على اعتبار الكلام طريقة لتغشية الحقائق ووسيلة الى الرياضة العقلية العابثة ؟

ان تأثير الفلسفة ، روحا ومنطقا ، في انماء فن السخر اطلاقا قضية لا تحتاج في رأى المتأدبين الى تعمق كثير . والعرب قد عرفوا الفلسفة ، وعرفوها اقرب ما تكون الى روحية السخر ، في اسلوب الكلام والمتكلمين . فمن الطبيعي اذن ان يعد الكلام - والفلسفة عموما - في طليعة العوامل التي ساعدت في استواء السخر الفني .

ولا نريد ان نسبق - هنا - مجرى الكلام ، فنتحدث - ولو بايجاز يكفي لتأييد هذا الرأى - عن الجاحظ المتكلم الساخر ، فللحديث عن الجاحظ غير هذا المقام ، وحسبنا ان نشير الى ذلك اشارة .

(((())))

.../...

هامـــش الفصــــل الثالـــث

١) ـ الحمصي ، نعيم ، تاريخ فكـرة اعجاز القـرآن ، المشرق مجلـد ٢٧ ج ٢ ،ص ٢٤٨
٢) ـ الحمصي ، نعيم ، تاريخ فكـرة اعجاز القـرآن ، المشرق مجلـد ٢٧ ج ٢ ،ص ٢٤٨
٣) ـ المقدسي، انيس ، تطـور الاساليب النثرية ،بيروت ،ص ١٩٣٥ ، ١٠٨
٤) ـ القلشقندى ، ابو العباس احمـد ، صـبح الاعشى في صناعة الانشا ، دار الكـتب المصـرية ١٩١٢ - ١٩١٣ ، ٦ ، ٣٩١
٥) ـ كرد علي ، محمد ، امراء البيان ، مطبعة التأليـف والترجمة والنشر ١٩٣٧ ، ١٠٩
٦) ـ امين ، احمـد ، ضحى الاسلام ، لجنة التأليـف والترجمـة والنشر ، ج ١ ص ٩
٧) ـ الجاحظ ، مجموعة رسائل الجاحـظ ، طبعة التقـدم القـاهرة ١٣٢٤ ، ٤١
٨) ـ ابن قـتيبه ، عـيون الاخـبار ، جـزء اول ٢٠٤
٩) ـ امين ، احمـد ، ضحى الاسـلام ، جزء اول ٨
١٠) ـ امين ،احمـــد ،فجـر الاسلام ، مطبعة الاعتماد ١٩٢٨ ، جزء ٢ ، ١٠٠
١١) ـ الجاحـظ ، مجموعـة رسـائل الجاحـظ ، [illegible]
١٢) ـ الجاحـظ ، كـتاب الحيوان ، طبعـــة التقـــدم ، ج ١ ، ٩
١٣) ـ الجاحـظ ، البخـلاء ، ص ٢٠٩
١٤) ـ الجاحـظ ، البخـلاء ،
١٥) ـ الجاحـظ ، البخـلاء ،ص ٢٢٨
١٦) ـ ابن الطقطقي ، الفخرى في الادب السـلطانية ، المطبعة الرحمانية ، ٨٠
١٧) ـ النويرى شهاب الدين ، نهاية الارب في فـنون الادب ، جزء ٣ ، ٣١٥
١٨) ـ France A., La Vie Litteraire, V3, P. 32
١٩) ـ حسين ،طه ، نقد النثر ،طبع دار الكتب ١٩٣٢ ، ص ١١ (نشـــرة عبدالحميـد العبـادى)
٢٠) ـ E gger, Essai sur l'histoire de la Critiaue chez les Grecs, Paris I886

الفصل الرابع

الجاحظ

ليست الكلمة التالية تعريفا جامعا بشخصية الجاحظ ، ولا هي دراسة وافية لادبه ، فان غرضا كهذا اجل من ان توفيه حقه صفحات معدودة في مجرى بحث لا يتناول الجاحظ كموضوع مستقل ، وانما يتناوله كجزء محدود من موضوع عام . وهيهات ان يتسع سفر بكامله لضم الدنيا الجاحظية من اطرافها ، وهيهات ان تقوى سدود الدرس وقيود الادب على ان تحصر بحر الجاحظ بين دفتين ، فان لهذه العبقرية القوية الخصبة ، المتنوعة ، من السعة والعمق والبريق ما يكاد يتحدى كل حد وكل قياس . ونحن ، في دراستنا هذه ، لا نطمح الى جلاء افاق هذه الدنيا ، ولا الى الاحاطة بجوانب هذا البحر ، وانما نقصر طموحنا على دراسة اثار الجاحظ من زاوية معينة ، هي زاوية السخر بالمعنى الذى ضبطناه في اول المقال . على ان تكون هذه الدراسة اساسا ، او شبه اساس ، لايفاء الجاحظ ، ولا سيما سخره ، حقه الكامل من الالتفات والاستيفاء في دراسات غير هذه الدراسة . وسندرس على التوالي ، الهزء ، والاسرار ، والخفاء في ادب الجاحظ عسى ان يمهد ذلك الى تفهم اكثر لطبيعة السخرية الجاحظية .

. . .

١) - الهزء في ادب الجاحظ -

لا يمكننا الجزم في العوامل التي ركبت في نفس الجاحظ هذا الميل القوى الى الهزؤ الذى يتخلل اثاره . وقد يخطر في البال ان هذا الهزؤ مرجعه سوء حظ الجاحظ من الحياة و في المال والخلقة والنسب . وقد يخطر في البال ربط هذا الهزؤ بالشك الفلسفي الذى تغلغل في فكر العصر . وقد يرجع بعضهم هزء الجاحظ من الدنيا الى شعوره الطاغي بالقدرة ، اوالحيوية ، او الشخصية . وقد يقال العكس ... اما نحن فنؤثر الاخذ بالرأى الذى اورده الدكتور محمد مندور في كتابه " الميزان الجديد " اذ قال في معرض الحديث عن المعرى " ان التفسير

.../...

والبحث عن العوامل التي اثرت في حياة الكاتب او الشاعر لا يمكن ان ينتهي الى شيء نهائي . فقد بصرنا العلماء بما في حياة ابي العلاء من مؤثرات . ومع ذلك يظل دائما شيء لا يمكن تفسيره هو اصالة الاديب التي تتلخص في كيفية انفعاله بتلك المؤثرات . وهذا هو السبب في ان نرى ناقدا كالدكتور طه حسين يعرض لما كان من تفاوت اثر العمى على ابي العلاء وبشار ، فلا يجد تعليلا غير ما يسميه " غريزة ابي العلاء الوحشية " . ومن الواضح ان هذا التفسير لا يغني لما فيه من دور ، اذ ما نريد ان نفهمه هو سبب تلك الوحشية التي يتميز بها . .. واذن فمحاولة الفهم خير من محاولة التفسير ".(١)

واذا تخلينا عن قصد التفسير هذا ـ الذى لا علاقة له ببحثنا ـ فانصرفنا الى دراسة الهزء عند الجاحظ بغاية التفهم لا بغاية " التفسير " اخذنا العجب لهذا العقل الجاحظي كيف اطل على الدنيا من نافذة الهزء هذه الطلة العبقرية ، حتى يصح ان تطلق على كتب الجاحظ اسم الكوميديا الانسانية ، الذى اختاره بالزاك لمكتبته .

كان الهزء ـ بمعناه الواسع ـ ابرز صفات النفسية الجاحظية ، وهذا الهزء قد تراوح عنده بين ان يكون نقدا ادبيا او شكا فكريا ،اوهزوا محضا .

وليس ثمة ميدان من الميادين لم يدخله هزء الجاحظ . وليس ثمة مقدس واحد لجم الجاحظ فنه عن تناوله . وقد ذهب في ذلك كله مع حرية في النفس غلابة ، تأبى على العبقرى الا ان يعبر عما في نفسه من معان .

و في امكاننا ، اذا رغبنا في التوسع ، ان نتحدث عن ملكة النقد عند الجاحظ ، باعتبارها ذات صلة و ثيقة بميزة الهزء . فاكبر الظن ان اديبا يقول : " ينبغي لمن كتب كتابا ان لا يكتب الا على ان الناس كلهم اعداء له ، وكلهم عالم بالامور ، وكلهم متفرغ له".(٢) اكبر الظن ان اديبا يقول مثل هذا القول انما يفضح النزعة النقدية بنفسه . فضلا عن ان النقد ـ كل نقد ـ بما يتضمنه من " حسّ النسب " هو ابن عم السخر .

ولكن النقد المجرد يفتقر ، في اعتقادنا ،الى الادارك او الاحساس الفكاهي ، ليصح ان يعتبر هزؤا. فلنكتف اذن بالكلام على ما احتوى هذا العنصر ولندرس هزء الجاحظ بالمعنى المحدد .

يروى لنا الجاحظ في الحيوان قصة صغيرة تثبت لنا ان ملكة النقد الممزوجة بالاحساس الفكاهي ـ يعنى الهزء ـ قد ظهرت عنده وهو ما يزال فتى ، يقول : " وبينما انا جالس يوما في المسجد مع فتيان من المسجديين ، مما يلي ابواب بني سليم ، وانا يومئذ حدث السن ، اذ اقبل ابو سيف الممرور ، وكان لا يؤذى احدا ، من قوم سراة ، حتى وقف علينا ، ونحن نرى في وجهه اثر الجد ،ثم قال مجتهدا : والله الذى لا اله الا هو ان .... لحلو ! ثم والله الذى لا اله الا هو

.../...

ان . . . . حلو ، يمينا باتة ، يسألني الله عنها يوم القيامة ! فقلت : اشهد انك لا تأكله ، ولا تذوقه ، فمن اين علمت ذلك ... فان كنت علمت امرا فعلمنا مما علمك الله . قال : رأيت الذبان يسقط على النبيذ الحلو ، ولا يسقط على الحازر ، ويقع على العسل ، ولا يقع على الخل واراه على الـ .... اكثر منه على التمر ، افتريدون حجة ابين من هذه ؟.... فقلت : يا ابا سيف ، بهذا وشبهه ، يعرف فضل الشيخ على الشاب ..."(٢)

ولعل هذه القصة الصغير كافية لان تدل على قوة روح الهزء عند الجاحظ . فانه ، على حداثة سنه يومذاك ، قد استطاع ،لا ان يهزأ فحسب ، بل ان يرتفع بهزؤه الى مرتبة السخر . ويكاد كل سطر من سطور القصة ينضج بروح السخر . اسمعه يصف الممرور في القصة بانه من قوم سراة ، ثم اسمع هذا الممرو ر يحلف بالله (الذى لا اله الا هو) بان ... حلو ! ثم الحظ قسم الجاحظ وشهادته البريئة لوجهه تعالى بان ابا سيف لا يأكل الـ .... ولا يذوقه... ثم قوله بعدها علمنا مما علمك الله ... واخيرا ملاحظته الخبيثة " بانه بهذا وشبهه يعرف فضل الشيخ على الشاب " . كل هذه النتف والملاحظات تشهد على اصالة روح الهزء في الجاحظ الصبى ، وتنبيء بهذا الطوفان من ادب الهزء في كتب صاحب البخلاء .

وتمثيلا على المدى الذى وصل اليه هزؤه نذكر كيف هزأ ببعض العلماء والمفسرين واصحاب الاخبار قال :" وزعم بعض المفسرين واصحاب الاخبار ان اهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفار ، فعطس الاسد عطسه ، فرمى منخريه بزوج سنانير ، فلذلك السنور اشبه شيء بالاسد ، وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير اشبه بالفيل . قال كيسان : فينبغي ان يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حواءها". (٤)

..." ومما اكتب لك من الاخبار العجيبة التي لا يجسر عليها الا كل وقاح ، اخبار بعض العلماء ، وبعض من يؤلف الكتب ويقرؤها ويدارس اهل الصبر ويتحفظها . وزعموا ان الضبع يكون عاما ذكرا وعاما انثى ... وقد ذكرت العلماء الضباع في مواضع من الفتيا لم نر احدا ذكر ذلك واولئك باعيانهم هم الذين يزعمون ان النمرة تضع في مشيمة* واحدة جروا وفي عنقه افعى قد تطوقت به".(٥)

وقد يهزأ ببعض الاحاديث فيقول :" وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص ".(٦)

وكما هزأ الجاحظ من العلماء والمفسرين والرواة كذلك هزأ من هذه الديانات التى عرفتها الشعوب قبل الفتح الاسلامي . من ذلك حديثه عن مذهب المجوس " ويزعم زرادشت – وهو صاحب المجوسية – ان الفارة من خلق الله ، وان السنور من خلق الشيطان وهو ابليس ، وهو اهرمن ، فاذا قيل له كيف تقول ذلك

– المشيمة ، محل الولد تخرج عند الولادة (محيط المحيط) .../...

والفأرة مفسدة ، تجذب فتيلة المصباح فتحرق بذلك البيت ، والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام ، والارياض الواسعة ، بما فيها من الناس والحيوان والاموال وتقرض دفاتر العلم ، وكتب الله ووثائق الحساب والصكاك والشروط وتقرض الثياب وربما طلبت القطن التأكل بذره فتدع اللحاف غربالا ، وتقرض الجرب واوكية الاسقية ، والزقاق ، والقرب ، فتخرج جميع ما فيها ، وتقع في الانية وفي البئر ، فتموت فيه ، وتحوج الناس الى مؤن عظام ، وربما عضت رجل النائم ، وربما قتلت الانسان بعضتها ، والفأر بخرسان ربما قطعت اذن الرجل ، وجرذان انطاكية تعجز عنها السنانير ، وقد جلا عنها قوم وكرهها اخرون ، لمكان جرذانها ، وهي التي فجرت المسناة حتى كان ذلك سبب الخراب بارض سبا وهي المضروب بها المثل ، وسيل العرم مما تؤرخ بزمانه العرب ، والعرم المسناة ، وانما كان جرذان ، وتقتل النخل والفسيل ، وتخرب الصنيعة ، وتأتي على رزمة الركاب والخطم وغير ذلك من الاموال . والناس ربما اجتلبوا السنانير ليدفعوا بها بوائق الفأر فكيف صار خلق الفأر المفسد من الله وخلق النافع من خلق الشيطان ، والسنور يعدي به على كل شيء خلقه الشيطان ، من الحيات والعقارب والجعلان وبنات وردان - والفأرة لا نفع لها ومؤنها عظيمة .... قال : لان السنور لو بال في البحر لقتل عشرة الاف سمكة . فهل سمعت بحجة قط ، او بحيلة ، او باضحوكة ، او بكلام ، ظهر على تلقيح هرة يبلغ مؤون هذا الاعتلال ...

فالحمد لله الذي جعل هذا مقدار عقولهم واختبارهم " .(٧)

فاذا كان هذا هو هزؤ الجاحظ بالافكار ذات الصور الدينية ، وبالمعتقدات فمن الطبيعي جدا ان يكون هزؤه بالبخلاء وبالحمقى كما كان . بل من الطبيعي ان يهون عند الجاحظ الهزء بكل شيء .

والحق ان تعداد الاشخاص والافكار التى هزأ بها الجاحظ امر يكاد لا يقع تحت حصر . بل ان الانسان لا يعرف في كثير من المواضع ممن يهزأ الجاحظ بالضبط .... ابالشيء ام بعكسه .. ابالصدق ام بالكذب ..؟ ابالعلم ام بالجهل .. ابالشخص موضوع الهزء ام بالقارئ نفسه . ام بهذه الامور المتناقضة جميعا . وقد لا نغالي اذا قلنا انه كثيرا ما يلجأ قارئ الجاحظ - مهما يكن فطنا - الى حبس بعض الضحكات الهازئة ، مخافة ان يكون هو المهزؤ منه .. وهذا لعمر الحق اقصى غايات السخر .

وقد يقف القارئ مرتبكا حائرا امام الكثير من كلام الجاحظ - لا يدري ايضحك ام يعبس ايصدق ما يسمع ان ينكره ، ايأخذه مأخذ الجد ام مأخذ الهزء واذا اعتبره هزؤا فبمن ؟ ابه ، ام بموضوع الكلام ، ام بالعقل اطلاقا ؟

وقد نعرض ، في ثنايا الكلام ، دعوات من هذه الدعوات التي عود بها الجاحظ اذن قارئه ، من امثال حفظك الله ورعاك وامد من عمرك فيجفل وكأن الجاحظ قد مسه مساسا خبيثا .

.../...   .   .   .

٢) - الخفاء في ادب الجاحظ -

ما من شك ان في ادب الجاحظ اشياء كثيرة تبدو ، لاول وهلة ، متناقضة مع عنصر الخفاء الذى نريد ان نبحثه . فالجاحظ لم يخرج في طريقته عن " اعادة السلف الصالح في ارسال النفس على السجية والرغبة بها عن لهس الرياء والتصنع في مواضيع الهزل والمجون " . وقد ذكر هذه الطريقة ابن قتيبة اذ قال :

" اذا مر بك حديث فيه ايضاح بذكر عوره او فرج او وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع والتخاشع على ان تصعر خدك وتعرض بوجهك . فان اسماء الاعضاء لا تؤثم وانما المأثم في شتم الاعراض وقول الزور والكذب واكل لحوم الناس بالغيب . قال ولم اترخص لك في ارسال اللسان الرفث على ان تجعله هجيراك على كل حال بل الترخص مني ، فيه حكاية تحكيها ، او رواية ترويها تنقصها الكناية ويذهب بحلاوتها التعريض . واحببت ان تجرى في القليل من هذا على عادة السلف الصالح في ارسال النفس على السجية . والرغبة بها عن لهس الرياء والتصنع". (٨)

وقد اكد هذه الطريقة وكونها هي الطريقة المألوفة الجرجاني حين قال :

" وقد استشهد العلماء لغريب القرآن واعرابه بالابيات فيها الفحش وفيها الفعل القبيح " . (٩)

كما روى الحصرى بمناسبة الكلام على مجون ابى نواس انه " ما نهى النبى ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعده عن انتشار شعر عاهر ولا فاجر" . (١٠)

ونحن نعرف ممن اتى بعد الجاحظ من سلك هذه الطريقة على فضله ومقامه وتقواه ، كابن حزم في " طوق الحمامة " في الالفة والالاف(دمشق مطبعة البرهان ، ١٣٤٩) والراغب الاصفهاني في " محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والادباء " (مصر ١٣٤٦)، والقاضي التنوخي في نشوار المحاضرة " واخبار المذاكرة " (دمشق المفيد ١٩٣٠) ... مما يدل على ان التصريح ببعض الامور التى تعود الناس اخفاءها كان من التقاليد المقررة في الادب العربى .

وهذه الطريقة طريقة التصريح والتعبير العارى ، لم يتبعها الجاحظ في كتبه فحسب ، بل نص عليها فقال :

" وبعض الناس اذا انتهى الى ذكر ..... ارتدع واظهر التعزز واستعمل باب التورع ، واكثر من تجده كذلك فانما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والوقار الا بقدر هذا الشكل من التصنع ... وبعد فلو لم يكن لهذه الالفاظ مواضع لما استعملها اهل هذه اللغة ...". (١١)

.../...

فالتصريح ، اذن ، هو اسلوب الجاحظ في الكلام على الامور الجنسية ولا يقف الامر عند حدود هذه المواضيع فحسب ، بل يتعداها الى غيرها ايضا . والذي يقرأ اراء الجاحظ "البلاغية" الى جانب كتاباته يكاد يحسب الخفاء عدو الجاحظ الاول .

ففي رسالة مدح التجار وذم عمل السلطات يقول : " ثم خذه بتصريف حجج الكتاب وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ الى المعنى الغامض ، واذقه حلاوة الاختصار وراحة الكفاية وحذره التكلف واستكراه العبارة فان اكرم ذلك كله ما كان افهاما للسامع ولا يحتاج الى التأويل والتعقيب ويكون مقصورا على معناه ، لا مقصرا عنه ولا مقاصرا منه ولا فاضلا عليه ، فاختر من المعاني ما لم يكن مستورا باللفظ المتعقد".

وله " احسن الكلام ما كان .... معناه في ظاهر لفظه ...
ومتى قصت الكلمة على هذه الشريطة ... اصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة ..." (١٢)

وقد يظهر للناظر نظرة سطحية ان هذا ما يتناقض مع الخفاء الذي اعتبرناه من عناصر السخر الاساسية . ولكن هل هذا التناقض موجود بالفعل .... واذا لم يوجد فكيف يظهر عنصر الخفاء عند الجاحظ ...

وقبل ان نعرض للخفاء في ادب الجاحظ ، يجب ان نقف بالقارئ وقفة قصيرة عند كلمتين صغيرتين جديرتين بان تشككانا بعض الشك بخلو ادب الجاحظ من عنصر الخفاء . الاولى ملاحظة له اوردها في احدى رسائله حين قال ان الكلام قد يكون في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل كما يكون في لفظ الهزل ومعناه الجد". (١٣) والثانية تعليق له على قصة معروفة عن رجل بخيل قيل لما مات قدم ابنه ، فسأل عن ادامه ، فاذا هو قطعة من الجبن ، واذا فيها حز من اثر مسح اللقمة فرأى في هذا الحز ما يدل عنده على الاسراف فغضب فقيل له " فانت كيف تريد ان تصنع !" فقال : اضعها من بعيد فاشير اليها باللقمة ." وقد علق الجاحظ على هذه النادرة بما يفضح اسلوبه في السخر قال : " ولا يعجبني هذا الحرف الاخير ، لان الافراط لا غاية له .... فاما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره " . (١٤)

وتفيد هاتان الكلمتان اللتان استشهدنا بهما على ان الجاحظ لم يكن يقصد دائما ظاهر معنى لفظه وانه كان يؤثر من اساليب الهزء والاضحاك ما خلا من الافراط الذي لا غاية له ، كالحرف الذي انكر الجاحظ استعماله . ولعل القارئ يوافقنا على ان هاتين الكلمتين اقرب انسجاما مع فن الجاحظ من ظاهر الامثلة التي اوردناها في اول الكلام .

.../...

لنتساءل اين هو الخفاء في ادب الجاحظ ... انه على التصميم في جميع ما كتبه الجاحظ ملمحا غير مصرح موجزا غير مطنب ، وانه على التخصيص في هذه الطريقة غير المباشرة التي يسوق فيها هزأه بالناس والحياة ... انه في لهجة البخلاء المترعة بالمنطق الصوري ، كما أنه في الصيغة الانكارية - او الاستفهامية - التي تزخر بها رسائله . انه - باختصار - في معظم ما كتب الجاحظ بصفته فنانا لا بصفته عالما او متكلما .

وسيأتي الكلام في ذلك في معرض الحديث عن فن الجاحظ ....

. . .

٣)- الاسرار في ادب الجاحظ -

يكاد يكون الضحك من الامور النادرة التي مدحها الجاحظ بايمان واخلاص ، فان هذا العقل النفاذ الشكاك ، الكثير النقد الحاد الحساسية كان اميل الى الهجاء منه الى المدح ، وقد لا يكون احد من الامراء ، او القادة او ذوي السلطان ، قد حاز من مديح الجاحظ ما حازه الضحك .

قال في البخلاء :

" لو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر المبني ، كانه يضحك ضحكا . وقد قال الله جل ذكره : " وانه هو اضحك وابكى وانه هو امات واحيى " فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت وانه لا يضيف الله الى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كبيرا ، وهو شيء من اصل الطباع ، وفي اساس التركيب ، لان الضحك اول خير يظهر من الصبي ، وبه تطيب نفيسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته .

ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي اولادها بالضحاك وببسام وبطلق وطليق . وقد ضحك النبي (صلعم) ومزح وضحك الصالحون ومزحوا واذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن ، وبسام العشيات ، وهش الى الضيف . وذو اريحية ، واهتزاز ، واذا ذموا قالوا : هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم المحيا ، وهو يكهر ابدا ، وهو كريه ومقبض الوجه ، وحامض الوجه ، وكانما وجهه بالخل منضوح ". (١٥)

وفي رسالة التربيع والتدوير :

" فاما المحامي على الهزل والمفضل للمزح فانه قال " واذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح انه دليل على حسن الحال وفراغ البال وان الجد لا يكون الا من فضل حاجة والمزح لا يكون الا من فضل غنى ، وان الجد غضب ، والمزح

.../...

جمام والجد مبغضة والمزح محبة ، وصاحب الجد في بلاء مما كان فيه ، وصاحب المزح في رجاء الى ان يخرج منه ، والجد مؤلم وربما عرضك لاشد منه والمزح ملذ وربما عرضك لالذ منه ... فقد شاركه في التعريض للخير والشر وباينه بتعجيل الخير دون الشر ، وانما تشاغل الناس ليفرغوا وجدوا ليهزلوا . كما تذللوا ليعزوا وكدوا ليستريحوا وان كان المزاح انما صار معيبا والهزل مذموما لان صاحبه لا يكون الا معرضا لمجاوزة القدر ومخاطرا بجودة الصديق فالجد داعية الى الافراط كما ان المزح داعية الى مجاوزة القدر والتجاوز للحق قاطع بين الفريقين في جميع النوعين فقد ساواه المزاح فيما هو له وباينة فيما ليس له وان كان المزح قبيحا لانه يورث الجد فاقبح من المزح ما صير المزح قبيحا ..."(١٦)

وهكذا نجد الجاحظ – في هذه المواضع وغير هذه المواضع يشيد بالضحك والاضحاك ، ويستعين بالايات الكريمة ، والسنة الشريفة ، وبالمنطق والعقل جميعا لينصر الضحك على اعدائه – واما افبحهم من اعداء .

وليس بوسع احد الانكار ان بعض ما قاله الجاحظ قد يفهم منه ان قصد الكاتب الكبير بالاضحاك انما كان مجرد الخروج بالقارئ من جو الجفاف العلمي والتقطيب الدراسي .

افليس هو القائل :" وان كنا قد امللناك بالجد والاحتجاجات الصحيحة والمروجة ، لتكثر الخواطر ، وتشحذ العقول ، فاننا سننشطك ببعض البطالات ، ويذكر العلل الظريفة والاحتجاجات الغريبة ..."(١٧) .

ثم افليس هو القائل ايضا :" فان كنت ممن يستعمل الملالة وتعجل اليه السآمة ، كان هذا الباب تنشيطا لقلبك ، وجماما لقوتك ، ولتبتدئ النظر في باب الحمام ، وقد ذهب الكلال واحدث النشاط ، وان كنت صاحب علم وجد ، وكنت ممرنا موقحا وكنت الف تفكير وتنقير ... لم يضرك مكانه (اى مكان المزاح) من الكتاب ، وتخطيك اليما هو اولى منه " .(١٨)

ولكن كل ما كتبه الجاحظ هو رد على مثل هذا التحقير لمقام الضحك .

ويستعين الجاحظ في اسراره بما تسميه الاطراف . ونظرة سريعة في المواضيع التي يطرقها كفيلة بان تظهر لنا ميله هذا الى الاطراف .

ففي الحيوان ، يقول في القسم الاول من الجزء الاول انه كتبه انسباقا مع المناظرة التي كانت بين الشيخين في الكلب والذئب ، ورغبة في استقصاء البحث في هذا الموضوع (١٩) وفي القسم الثاني يتحدث عن الخصاء (٢٠) وفي القسم الثالث عن المحاورة بين صاحبي الكلب والديك (٢١) ناهيك عن الاستطرادات الطريفة في امثال المواضيع التالية كمدح القلم (٢٢) والكلام في الهجين والنهجين(٢٣)

.../...

وملكية الخصي (٢٤) والنساء (٢٥) وقرب الخصي من النساء (٢٦) الى نوادر واخبار وحوادث من كل لون وجنس .

وفي الجزء الثاني، يتابع الجاحظ الحديث عن الكلب والديك (٢٧) مع استطرادات متنوعة في حياة الحيوان وطرق عيشه وقربه من الانسان وبعده، وامراضه واخلاقه .

اما الجزء الثالث — فقد اورد في مقدمته نوادر ونكتا متنوعة (٢٨) كما تحدث عن اهمية صغار الخلق (٢٩) بمناسبة الحديث عن الذبان واخلاقياتها والضفدع والنمل والنحل والبعوض .

اما الجزء الرابع — فقد تحدث فيه عن الذرة واخلاقياتها ثم عن الخنزير والقرد وحكايات المسخ واكل اللحم (٣١) ثم عن الحيات وخرافاتها (٣٢) والوزغ .

وفي الجزء الخامس — افرد للنوادر قسما كبيرا من الجزء (٣٣)
وتكلم في الجزء السادس عن اعاجيب الضب (٣٤) واستطرد على ذكر عزيف الجان (٣٥) ثم الى نوادر وحكايات واشعار استغرقت قسما كبيرا من الجزء .(٣٦)

اما الجزء السابع فلم يلجأ فيه الى الاطراف كثيرا .
ويحتوي البيان والتبيين على مواضيع كثيرة تظهر صبوة الجاحظ الى الاطراف ، ككلامه في الجزء الاول على اللثغة وعيوب اللسان ،(٣٧) وتعرضه لاقوال النوكي (٣٨) وغير ذلك .

اما الجزء الثاني فيحتوي من المواضيع الطريفة على الالغاز (٣٩) والنوادر (٤٠) واللحون الظريفة (٤١) والنوكيات المضحكة (٤٢) وضروب السعي (٤٣) واخبار الحمق . (٤٤)

اما الجزء الثالث من البيان فيحتوي كذلك على مواضيع طريفة ، لا سيما الكتاب الثالث منه الذي يدور كله على الاشعار والخطب والنوادر .

اما البخلاء فلا لزوم فيه الى تعيين مواضيع الاطراف. لان الموضوع من اساسه اطراف .

اما سائر اثار الجاحظ ، وعلى الاخص رسائله ، فان الاطراف ظاهر فيها، ولو شئنا تفصيل ذلك ، لطال المقام . ولعل في ما ذكرناه عن كتبه الرئيسية كفاية . الا انه من المفيد على اية حال الاشارة الى ان الجاحظ قد اشار في البخلاء (٤٦) الى كتاب له باسم كتاب المسائل ، يدور في جملته على بعض الاراء الغريبة كعلة خباب في نفي الغيرة ، وعلة الجهجاه في تحسين الكذب ، ومذهب صحصح في تفضيل النسيان على التذكر، وامثال ذلك من الامور التي لا تخطر على بال ، في معرض تأليف او تصنيف . وفي هذا الشاهد وحده ، ما يغني في الدلالة على نزعة الجاحظ الى الاطراف .

وهناك خاصة ، غير خاصة الاطراف ، استعان بها الجاحظ لبحث الاسرار في نفوس قرائه ، الا وهي خاصة المفارقة والمقارنة . ولا نعني بقولنا استعان انه قصد الى ذلك قصدا . كلا . بل اننا لنعتقد ان ميزة الفطنة هذه الى المفارقات والمقارنات هي طبع اصيل في شخصية الجاحظ . لا بل اننا نؤمن ان الجاحظ ، بمعنى من المعاني ، اسير نوع معين من التفكير هو هذا النوع القائم على المفارقة والمقارنة . ومما لا شك فيه انه كان لتمرسه في الكلام والمنطق اثر كبير في تقوية هذا الاسلوب الفني الذى يتجه الى كشف المتناقضات اول ما يتوجه .

ولكن الاصل في الامر ، على ما نعتقد ، طبيعة الجاحظ النقادة ، وفطرته المطبوعة على ما اسميناه في اول الرسالة حس عدم التجانس .

من الواضح ان الجاحظ نزاع ابدا الى الكلام في المفارقات التى تفرق بين الاراء والاشياء والناس . فالتربيع يستتبع عنده الحديث على التدوير ، والجد يتطلب الكلام على الهزل ، والبلاغة تسوقه الى القول في الصمت ، والحاسد الى المحسود ، والخريف الى الربيع والسودان الى البيضان ، وكتمان السر الى افشائه ، والصدق الى الكذب ، والتذكر الى النسيان ، والكلب الى الديك ، والدجاج الى الحمام ، والخنزير الى الفيل ، والبخل الى الكرم ، والنساء الى الرجال ، ومحاسن التجار الى مساوئهم ، والترك الى الروم ، والعرب الى الفرس .... الى ما هنالك من مفارقات في الافكار والاشياء والناس تكاد تكون الطابع العام لاسلوب الجاحظ .

ولا ريب ان هذا التفكير الازدواجي، ان صح التعبير ، يعود في جزء كبير منه الى طبيعة الاسلوب العربي ، بل السامي كما تشهد بذلك التوراة ، ويعود الى تداعي الالفاظ ، والدربة المنطقية التى انطبع عليها الجاحظ بتمرسه بعلم الكلام . غير ان جذورها تمتد الى ابعد من ذلك بكثير ، الى طبيعة الجاحظ - او على التخصيص - الى حساسية مركبة في فطرة الجاحظ تتجاوب مع كل ما هو غير فطرى ، وغير منسجم او غير طبيعي ، في الناس والكون والحياة تجاوبا خاصا .

اسمعه يقول :" وليس العجب من رجل في طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الامور ، وبحركة في بعض الجهات ، ولكن العجب ممن يموت مغنيا وهو لا طبع له في معرفة الوزن ، وليس له جرم حسن .... واخر قد مات على ان يذكر بالجود ، وان يسخى على الطعام ، وهو ابخل الخلق طبعا فتراه كلفا باتخاذ الطيبات ، ومستهترا بالتكثير منها ، ثم هو ابدا مفتضح ، وابدا منتقض الطباع ، ظاهر الخطا سيء الجزع عند مؤاكلة من كان هو الداعي له والمرسل اليه والعارف مقدار لقمه ونهاية اكله .(٤٧) .

.../...

وهذا المثل يدلنا على ان التناقض الذي جذب انتباه الجاحظ لم يكن دائما تناقضا بين شيئين او رجلين او طبيعتين مختلفتين ، وانما كان في بعض الاوقات تناقضا بين مظاهر الامور وبواطنها ، وسير الناس وسرائرها ، وبوادي الاشياء وخوافيها ، وهو ما يظهر لنا بجلاء في الكلام الذي سقناه اعلاه .

غير ان حس المفارقة عند الجاحظ لم يعمل في الاتجاهين السابقين فقط. بل عمل ايضا باتجاه آخر وهو الفرق بين الوقائع والتصرفات من جهة وصورها المثالية وما يجب ان تكون من جهة ثانية . فالتحاسد بين العلماء ، والتباغض بين الجيران ، والحمق عند الفقهاء والاشراف ، والبخل عند الوزراء ، كلها مفارقات تتنبه لها الجاحظ والتقطها باصابع فنه الساحرة ولولا ان هذا الاتجاه يدخل في نزعة الجاحظ الى نحو الاطراف التي سبق الحديث عنها ،لكنا تناولناها بتوسع اكثر . ولكن نكتفي بما جاء هناك ، معتبرين ان كثيرا مما جاء في الاطراف هو من هذا القبيل .

. . .

٤) - فن الجاحظ -

ان عناصر السخر الاساسية موجودة في ادب الجاحظ ، كما رأينا ، وميزات الهز ء والاسرار والخفاء ظاهرة بوضوح في طريقته . ولكن الجاحظ ، والحق يقال ، لم يبلغ في السخر ما بلغ لانه هزأ باسلوب خفي مسر ، وانما هو قد بلغ ذلك لانه عرف كيف يجعل من هذه العناصر روائع من ادب العقل والروح . فان لثقافته الواسعة المتنوعة ، ولمقدرته الخارقة على التغلغل في روح الجماعات والافراد ، وموهبته التصويرية الدقيقة ، اثرا في سخريته لا ينكر . وقد يسأل القارئ نفسه ، في بعض الاحيان : اي شيء يبقى من سخر الجاحظ ان نحن جردناه من ثقافته ، ونفاذ بصره في النفوس ، وملكته التصويرية الخلاقة !

فبمجرد الاطلاع على سعة الدائرة العقلية والعلمية التي جال فيها الجاحظ في كتبه يدرك القارئ اي بحر هو البحر الذي استمد الجاحظ منه ادوات فنه .

وبمجرد اطلاعنا على مقطع كالمقطع التالي :

" واسباب عداوات الناس ضروب . منها المشاكلة في الصناعة ، ومنها التقارب في الجوار ، ومنها التقارب في النسب ، والكثرة من اسباب التقاطع في العشيرة والقبيلة ، والساكن عدو المسكن ، والفقير عدو للغني ، وكذلك الماضي والراكب ، وكذلك (صاحب المال) والموصى له بالمال الرغيب ، وكذلك الوارث والموروث ،ولجميع هذا تفسير ، ولكنه يطول " (٤٨) بمجرد اطلاعنا على مقطع كهذا ، ينكشف لنا

الستار عن منجم من اغنى المناجم التى كان الجاحظ يستنجد بها ليتحفنا بروائع السخر ، وما هو الا منجم النفوس البشرية التى درسها الجاحظ بعمق .

اما عن شأن ملكته التصويرية في سخره ، فهو واضح تمام الوضوح في مثل الصورة التى اعطانا الجاحظ اياها عن قاضي البصرة ، عبدالله ابن سوار ، قال :

" كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبدالله بن سوار ، لم ير الناس حاكما قط ، ولا زميتا ، ولا ركينا ، ولا وقورا حليما ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده فيأتي مجلسه فيحتبي ، ولا يتكئ ، فلا يزال منتصبا لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، لا يحل حبوته ، ولا يحول رجلا على رجل ، ولا يعتمد على احد شقيه ، حتى كأنه بناء مبنى ، او صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم الى العصر ، ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد الى محله - بل كثيرا ما كان يكون ذلك اذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يتلو العشاء وينصرف . فالحق يقال : لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه في طوال الايام وفي قصارها ، وفي صيفها ، وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس الا ان يتكلم . فبينا هو كذلك ذات يوم واصحابه حواليه ، وفي السماطين بين يديه ، اذ سقط على انفه ذباب ، فاطال المكث ، ثم تحول الى مؤق عينه ، فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عضه ، وانفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على انفه من غير ان يحرك ارنبته غاو يغضن وجهه او يذب باصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله واوجعه واحرقه وقصد الى مكان لا يحتمل التغافل ، اطبق جفنه الاعلى على جفنه الاسفل ، فلم ينهض ، فدعاه ذلك الى ان والى بين الاطباق والفتح فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد الى مؤقه باشد من مرته الاولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد اوهاه قبل ذلك فكان احتماله له اضعف ، وعجزه عن الصبر من الثانية اقوى ، فحرك اجفانه وزاد في شدة الحركة وفي فتح العين وفي الفتح والاطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه . فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدا من ان يذب عن عينيه بيده ففعل ، وعيون القوم اليه ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما رد يده ، وسكنت حركته ثم عاد الى موضعه ثم الجاه الى ان ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم الجاه الى ان تابع ذلك وعلم ان فعله كله بعين من حضره من امنائه وجلسائه ، فلما نظروا اليه ، قال : اشهد ان الذباب الج من

.../...

الخنفساء واوهى من الغراب ، واستغفر الله مما اكثر من اعجبته نفسه فاراد الله عز وجل ان يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورا ، وقد علمت اني عند الناس من ازمت الناس ، فقد غلبني وفضحني اضعف خلقه ثم تلا قوله تعالى : " وان سيسليهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب " . (٤٩)

ان هذه القصة ، التي وصف فيها الجاحظ قاضي البصرة ، خير شاهد بفضل الجاحظ الوصاف على الجاحظ الساخر ، فان هذه الدقائق الوصفية الدقيقة من مثل نعت القاضي بانه يأتي مجلسه ، فيحتبي ولا يتكئ من فرط الوقار ، وانه " لا يزال منتصبا ، ولا يتحرك له عضو ، لا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحول رجلا على رجل ، ولا يعتمد على احد شقيه ، حتى كأنه بناء مبني او صخرة منصوبة " وانه " والحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب " ، وانه كان الى ذلك لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس الا ان يتكلم ، ثم وصف واقعة الذباب مع القاضي اذ سقط على انفه فاطال المكث ثم تحول الى موق عينه ، فرام الصبر في سقوطه على الموق ، وعلى عضه ونفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على انفه من غير ان يحرك ارنبته او يغضن وجهه او يذب باصبعه فلما طال ذلك عليه من الذباب .... اطبق جفنته الاعلى على جفنه الاسفل .... ثم والى الاطباق والفتح فتنحى ريثما يسكن جفنه ." الخ .... كل هذه الدقائق الوصفية قد اعانت الجاحظ على السخر بالقاضي سخرا نفاذا خفيا ، ولا نعتقد انه كان بامكان الجاحظ ان يسخر منه كما سخر لولا اجادته الوصف . وهنا تحسن الاشارة الى ان من اقوى فنون الهزء الحديثة فن التصوير الكاريكاتوري. فكأن بين السخر والتصوير صلة رحم لا يجوز ان تفصل .

رسالة التربيع والتدوير -

وقد تجلت روح السخرية باجلى مظاهرها وارفع صورها في فن الرسالة عند الجاحظ . ومن الطبيعي جدا ان يكون هذا الفن اكثر من سواه مطاوعة للسخر - فان فيه من مجالات الاخذ والعطاء ، والجزر والمد ما ليس في سواه . وقد يكون السخر في بعض الاحيان موضوع رسالة باسرها . كما هي الحال في الرسالة الفنية التي انشأها الجاحظ هزؤا برجل يدعى احمد عبدالوهاب واسماها رسالة التربيع والتدوير .

يطل السخر ، في هذه الرسالة من مجرد العنوان . فالعنوان يوحي لاول وهلة بان الموضوع هو قضية فكرية ، او فلسفية ، او علمية

محضة ، تقوم على بحث فكرتي التدوير والتربيع المجردتين من حيث قيمتهما المطلقة ، ومن حيث تطبيقاتهما العملية ويكاد هذا الاعتقاد يقوى في بعض مقاطع الرسالة . غير انه سرعان ما تعلو شفة القارئ ابتسامة رقيقة حين يعلم ان موضوع الرسالة شخص من لحم ودم ، لا قضية من قضايا الفكر ، وان القضية النظرية لم تثر الا لان الشخص مربع مدور ، ولان الكاتب يريد ان يظهر مناقب تدويره ، ومحاسن تربيعه .

فهو يقول في استدارته(٥٠) : " والناس ، وان قالوا في الحسن كأنه طاقة ريحان وكأنه خوط بان ، وكأنه قضيب خيزران ، وكأنه غصن بان ، وكأنه رمح رديني ، وكأنه المشترى ، وكأنه وجهه دينار هرقلي ، وما هو الا البحر ، وما هو الا الغيث ، وكأنه الشمس وكأنها دارة الزهرة ، وكأنها درة وكأنها غمامة وكأنها مهاة فقد تراهم وصفوا المستدير والعريض باكثر ما وصفوا به القضيف والطويل ".

ويقول " ووجدنا الافلاك وما فيها ، والارض وما عليها على التدوير دون التطويل كذلك الورق والزهر والحب والثمر" .

ويقول :

" والرمح وان طال فان التدوير عليه اغلب لان التدوير قائم فيه موصولا ومفصلا والطول لا يوجد فيه الا موصولا ، وكذلك الانسان وجميع الحيوان " .

وبالطبع ، يلحظ القارئ عمق السخر في ذلك كله ، فالكاتب يحاول ان يثبت ، بشيء كثير من الخبث ، امرا لو سميناه لقلنا انه محاسن القبح ! وهو في سبيل غايته هذه ، يستعين بالمنطق والعلم ، والفكر جميعا حتى يكاد يوهم قارئه بان احمد ، هذا الذي يسخر منه ، هو قضية نظرية اكثر منه انسانا ذا نفس وروح ،وانه مشكلة منطقية جديرة بان تبحث على مستوى المجردات .

وهذا ، في الحق ، سخر ما بعده سخر ، اذ اي شيء آصل في الهزء ، واعمق في الاستخفاف ، من ان يعامل بشري من الناس على انه فكرة ، وفكرة فحسب ، واي شيء ابلغ في الفن وابرع في الاخراج من ان يحل هذا الاسلوب محل الهجوم المباشر على قبح احمد لتسخيف الرجل والتهوين من شأنه .

ثم ان هذا ليس كل ما في رسالة الجاحظ البارعة من سخر فكاتبنا قد سخر من صاحبه ، بوسائل فنية متعددة غير وسيلة المعالجة النظرية لقضية التربيع والتدوير . ويكفي ان نذكر في هذا الباب هذه اللهجة

٠٠٠/٠٠٠

المركبة التي استعملها في رسالته ، ويقوم هذا التركيب في اللهجة على ثلاثة عناصر هي الاخبار ، والانكار ، والاستفهام . فالجاحظ في هذه الرسالة يخبر احمد عبدالوهاب امورا لا علم له بها . يسأله اعوص اسئلة ، وينكر عليه كل ما يدعيه من علم او حسن ، كل ذلك باسلوب دقيق متستر متداخل المعاني والاغراض يكاد القارئ لولا قليل من فطنة ، ان يضل معه عن غاية الجاحظ .

فبينا هو يسوق ، في لهجة الانكار ، انشب المدائح ، كقوله :

" وانما يحسد المرء ابقاك الله شقيقه في النسب ، وشفيعه في الصناعة ، ونظيره في الجوار ، على طارف قدره او تالد حظه او على كرم في اصل تركيبه ومجارى اعراقه ".

وبينما هو يقول في موضع اخر في الاسلوب نفسه :

" وقد علموا ابقاك الله ان لك مع طول الباد * راكبا ، طول الظهر جالسا ، ولكن بينهم فيك اذا قمت اختلاف وعليك لهم اذا اضطجعت مسائل ومن غريب ما اعطيت ، وبديع ما اوتيت ، انا لم نر مقدودا واسع الحفرة غيرك ، ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك فانت المديد وانت البسيط وانت المتقارب ، فيا شعرا جميع الاعاريض و يا شخصا جمع الاستدارة والطول " .

وبينما هو يقول :

" واشهد بعد انك تخاشن عمرو بحر الجاحظ وتعاقله ، ثم تطارفه وتطاوله ، وتغني مع مخارق* ، وتنكر فضل زرزور ، وتستجهل النظام * وتستبرد الاصمعي ، وتستغبي قيس بن زحله ، وتستخف الاحنف بن قيس * وتبار ابا الحسن علي بن ابي طالب رضي الله عنه ثم تخرج من حد الغاية الى حد المرأ ، ومن حد الاحياء الى حدود الموشي ، هذا وليس لك مساعد ولا معك شاهد واحد ، ولا رأيت احدا يقف في الحكم عليك ، او ينتظر تحقيق دعواك ، ولا رأيت مبصرا يخليك من التأنيب ، ولا مؤنبا يخليك من الوعيد ، ولا متواعدا يخليك من الايقاع ، ولا موقعا يرقي لك ، او شافعا شفع فيك " .

- القسم الملاصق للسرج من الفخذ . (Lane)
- مخارق : جارية برزت في الغناء والمنادمة . كان لون بشرتها اسود . ويملكها علي بن هشام (جدول كتاب الاغاني - لايدن ١٩٠٠)
- النظام (استاذ الجاحظ) (توفي ٢٢٠ - ٢٣٠) : كان معتزلا رئيس مدرسة في الاعتزال . قارع الزهرية والمرجئة والجبرية تكلم خاصة في التوحيد والعدل والوعد والوعيد .
- الاحنف بن قيس ويلقب بالضحاك . من صحابة النبي ومن فاتحي العراق وفارس . ناصر عليا ، واشترك في ادوار سياسية هامة اثناء فتن العراق في عهد الامويين .
(Rechendorff Encycl. of Islam Al Ahnef Ibn Kais)

ويقول ايضا في اسلوبه الانكاري نفسه : " اين الحسن الخالص والملح المحض ، والحلاوة التي لا تستحيل ، والتمام الذى لا يحيل ، الا فيك او عندك او لك او معك خالصة لك ، ومقصورة عليك ، لا تليق الا بك ، ولا تحسن الا فيك . فلك منه الكل ، وللناس البعض ، ولك الصافي وللناس المشوب . هذا سوى الغريب الذى لا نعرفه ، والبديع الذى لا نبلغه : لا بل اين الحسن الصمت ، والجمال المفرد ، والقد المعجب والكمال الغريب والملح المنثور والفضل المشهور الا منك وفيك . وهل على ظهرها جميل حسيب او عالم اديب الا وظلك اكبر من شخصه ، وظنك اكثر من علمك ، واسمك افضل من معناه ، وحلمك اثبت من نجواه ، وصمتك افضل من فحواه ، وهل في الارض حليم سواك ، وهل اظلت الخضراء ذا لهجة اصدق منك ، وهل حملت الناس اجل منك ، ولربما رأيت الرجل حسنا جميلا ، وحلوا مليحا وعتيقا شيقا ، وفخما نبيلا ، ثم لا يكون موزون الاعضاء ، ولا مقدور الاجزاء ، وقد تكون ايضا الاقدار متساوية ، وغير متقاربة ولا متفاوتة، وقد يكون قصدا ومقدارا عدلا ، وان كانت دقائق خفية لا يراها الا الالمعي ولطائف غامضة لا يعرفها الا الذكي فاما الوزن المحقق والتعديل الصحح ، والتركيب الذى لا يفضحه التفرس ولا يحصره التعنت ولا يتعلل جاهده ، ولا يطمع في التمويه ناعته فهو الذى خصصت به دون الانام ودام لك على الايام ".

اما الاستفهام ، فانه من العناصر الاساسية التي يتركب منها فن الجاحظ الساخر في الرسالة . ولعل المقاطع التي سيقت بلهجة استفهامية اروع ما في الرسالة وان السخرية تترقرق ترقرقا في مثل قول الجاحظ :

" حدثني كيف رأيت الطوفان ومتى كان سيل العرم ومنذ كم مات عوج ومتى تبلبلت الالسن ، وما حبس غراب نوح ، وكم لبثتم في السفينة ، ومنذ كم كان زمان الختان ويوم السلان ويوم وقعة البيداء . هيهات اين عاد وثمود واين طسم وجديس واين اميم ودبار واين جرهم وجاسم ".

وقوله : " فخبرني ما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك ، وما دار بينك وبين ارسطاطاليس ، واي نوع اعتقدت، واي شيء اخترت ، فقد ابت نفسي غيرك ، وابت ان تستقي الا بخيرك .

وهذه الاسئلة المتوالية التي حشا بها الجاحظ رسالته الى أحمد عبدالوهاب اخلق الاشياء بتمثيل عنصر الخفاء في هزء الجاحظ. فان هذا الاسلوب غير المباشر الذى اعتمده عمرو للاستهزاء بجهل صاحبه وادعائه قد رفع كلام الجاحظ من مستوى الهجاء والهزء الى مستوى السخرية ولعلها المرة الاولى يرتفع فيها الادب العربي الى جو السخرية الفنية الراقية .

.../...

هامش الفصـــل الرابـــع

١) - منـــدور محمـد ، الميزان الجــديد ، ١٠٧
٢) - الجاحـــظ ، كـتاب الحـيوان ، جزء ١ ، ٤٤
٣) - الجاحـــظ ، كـتاب الحـيوان ، جزء ٣ ، ١١٢
٤) - الجاحـــظ ، كـتاب الحـيوان ، جزء ١ ، ٦٨
٥) - الجاحـــظ ، كـتاب الحـيوان ، جزء ٨ ، ٤٩
٦) - الجاحـــظ ، كـتاب الحـيوان ، جزء ٥ ، ١٠٦
٧) - الجاحـــظ ، كـتاب الحـيوان ، جزء ٤ ، ٩٩
٨) - ابن قتيـبة ، عـيون الاخبـار ، المقـدمة
٩) - كـرد علي ، امراء البيان ، مطبعة التأليـف والترجمة ١٩٣٧ ، ج ٢ ، ٣٣٩
١٠) - كـرد علي ، امراء البيان ، مطبعة التأليـف والترجمة ١٩٣٧ ، ج ٢ ، ٣٣٩
١١) - ابن حـزم ، ابو بكـر محمـد ، طوق الحمامة في الالفة والالاف ، مطبعة البرهان ، دمشـــق ١٣٤٩
١٢) - الاصفهاني الراغب ، محاضـرات
) - كـرد علي ، امراء البيان ، مطبعة التأليـف والترجمة ، ١٩٣٧ ، ج ٢ ، ٣٣٢
) - الجاحـظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٤٧
١٣) - الجاحـظ ، مجموعـة رسـائـل الجاحـظ ، ١٢٢
١٤) - الجاحـظ ، البخــلاء ، ١٢٠
١٥) - الجاحـظ ، البخــلاء ، ٥
١٦) - الجاحـظ ، مجموعـة رسـائـل الجاحـظ ، ١٢٢
١٧) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ٣ ، ص ٤
١٨) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ٣ ، ص ٢
١٩) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ١ ، ص ٦
٢٠) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ١ ، ٥٠ - ٨٠
٢١) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ١ ، ٨٠ - ١٠٦
٢٢) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ١ ، ٣٢
٢٣) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ١ ، ٦٣
٢٤) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ١ ، ٦٨
٢٥) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ١ ، ٧٥
٢٦) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ١ ، ٥٧
٢٧) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ٢ ، ٧٧ - ٨٣
٢٨) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ٣ ، ١ - ٤٥
٢٩) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ٣ ، ٩٢ - ١٢٧
٣٠) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ٤ ، ٢ - ١٢
٣١) - الجاحـظ ، كـتاب الحـيوان ، ج ٤ ، ١٢ - ٣٨

.../...

٣٢) – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٤ ، ٣٨ – ١٠٢
٣٣) – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٥ ، ١٧٠ – ١٧٥
٣٤) – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٦ ، ١٦
٣٥) – الجاحظ ، كتاب الجيوان ، ج ٦ ، ٥٣ – ٦٩
٣٦) – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٦ ، ١٥١
٣٧) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ٣٠ – ٥٠
٣٨) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ٧١
٣٩) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ١١٦
٤٠) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ٣٥٣
٤١) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ١٥٥
٤٢) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ١٦٤
٤٣) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ١٦٩
٤٤) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ١٧٥
٤٥) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ، ١٢١ – ٢٧٢
٤٦) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ص ٤ ،
٤٧) – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ١ ، ٢٠١ – ٢٠٣
٤٨) – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٧ ، ٣٠
٤٩) – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٣ ، ١٠٩
٥٠) – الجاحظ ، مجموعة رسائل الجاحظ ، ٨٢

======

الفصــــل الخامـــــس

السخرية في المقـامات

١) _ المقامـة المضـيريـــة .
٢) _ المقامـة الشـــاميـة .
٣) _ المقامـة البغـداديـة .
٤) _ المقامـة الحلـــوانيـة .

رأيـنا ، فيالقســم المتقـدم من هـذه الرسالة ، كيـف وجـدت السخرية اصولها في بعـض الفـنون الادبيـة الاولية كالامثال والقصـص البـدوى والـنوادر . ثـم رأيـنا كيـف نضجـت هـذه السـخرية مع ظهور الجاحـظ واكتمال فن الرسالة . وحاولنا ان نجلـو معالمها في هـذا الفـن الـذى رفـع الجاحـظ لسـواءه . غيـر انادب الرسالة لم يكـن المجـال الوحيـد الـذىضهـرت فيـه روح السـخرية . ولا بـد لنا ، اذا اردنا ان نتفهم السـخرية العربية حـق التفهم ، من ان نتعـرف اليها في شـتى الغصون الـتى تفرعـت اليها دوحـة الادب العـربي . ولنبـدأ بغصـن حمـل الكـثير من ثمـرات هـذه السـخرية ونعنى بـه فن المقـامات .

لا ريـب في ان فن المقامات هو ضـرب من الاقصـوصة ،لاالقصـة ، وقـد اقـر ذلـك الـدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني (١) ولم يكتـف بـذلك فحسـب بـل تعـرض للامـر في مكان اخـر من الكتاب فـذكر" ان ناسا قـد ظـنوا ان فـن المقامـة هو فـن القصـة "(٢) وسنة رأيهم فقال : " ان العـرب بفطرتهم لم يكونوا يميلون الى القصـص المعقـد الـذى وجـد كـثير منه فيما اثـر عن اليونان القـدماء ، والذى ذاع عنـد الانجـليز والروس والفرنسـيين والالمان "(٣) وهو قـول نرجحـه ترجيحا كبيرا .

ومهما يكن من امـر ، فان فن المقامات فن جـدير بان يـدرس على انـه فـن قائم بـذاته . ونحن نتناول موضوع السـخرية فيه على هـذا الاعتبـار .

وقبـل ان نتصـدى تصـديا مباشـرا لـدراسة فن المقامة ، يحسـن بنا ان نشـير الى ان في طبيعة هـذا الفـن ما يقـربه من السخر . فالمقامة قصـة قصـيرة تـدور على محور من النكـتة الفكـرية ، او الادبيـة ، او البيانية ، او المجونية ، وقصـر المقامة ، وعنصـر النكـتة الـذى تحتويه ، يميـلان بها نحو فن من فـنونالادب ، تتوفر فيـه الالمعـية الذهنـية البراقـة ، والطـرافة الجميلة . وليـس كالادب الساخر توفيرا لهـذين العنصـرين فلا عجـب اذن ان يكـون الكثير من المقامات قائما على نظـــرة ضاحكة او فكـرة سـاخرة .

وكنا نحـب ان نبحـث في السـخرية لـدىاصحاب المقاماتجميعا من بـديع الزمان الىمحمـد المويلحي . غير ان الحـد التاريخـي لدراسـتنا لا يتجاوز بـديع الزمان

.../...

الا الى ابى نصر عبدالعزيز بن نباته السعدى المتوفي سنة ٤٠٥ ، وهو احد الشعراء الذين عرفهم بلاط سيف الدولة ، والذين تعاطوا فن المقامة وان لم يؤثر عنهم الا مقامة واحدة ، فيما اورد بروكلمان .(٤) .

ولا بد لنا من القول ان بديع الزمان الذى سنتناول مقاماته بالبحث كان من الاشخاص المهيئين لان ينتجوا ادبا ساخرا . فقد عرفت عنده صفات الابداع وقوة العارضة وسرعة الخاطر وتوقد الذهن (٥) كما عرف بالظرف والفكاهة (٦) . ويكفي ما كتبه ياقوت لاعطاء فكرة عن شخصيته (٧) . ولكن هذه الامور لا تسمح لنا باعتباره اديبا ساخرا قبل كل شيء ، شأنه شأن الجاحظ مثلا . ذلك ان من مقومات الاديب الساخر ان يعكس لك ادبه دنيآ خاصة به ، فذة بين الدنيى ، وان تغادره وبنفسك فكرة عنه كصاحب اسلوب معين في النظر الى الحياة والناس . ولم يكن بديع الزمان كذلك ، وان يكن بعض ما انتج ينتمي الى هذا النوع من الادب . ولعل اقرب الطرائق الى الصواب في دراسة بديع الزمان الساخر ان ندرس القطع الساخره في ادبه من غير ان نحاول ان نجعل منه اديبا ساخرا . وهذا ما سنصنعه بالنسبة الى غيره من الادباء الذين وجدنا عندهم ادبا ساخرا من غير ان يكونوا ادباء ساخرين .

ولنتطرق الى المقامات فنتناول منها بالبحث ما تضمن كثيرا او شيئا من السخر .

. . .

١) - المقامة المضيرية -

وتدور هذه المقامة على السخرية بتاجر ثقيل دعا مرة ابا الفتح الاسكندرى الى تناول الغداء في منزله ، فقبل ابو الفتح الدعوة وذهب الى دار التاجر . الا ان ضيافة الرجل كانت في غاية الثقل . اذ ازهق روح ضيفه بالحديث عن محلته وداره ، وزوجته ، وغلامه ، وخوانه ، وادوات منزله ، حتى بلغ به الامر حد الاشادة المطولة بكنيف الدار . فلم يتمالك ابو الفتح ، وقد فات وقت الغداء ، ولا يزال لدى الضيف ما يقوله ، عن ان يهرب . ولكن الهرب لم ينجه ، اذ اوقعه ركضه في هربه من منزل التاجر بمتاعب مؤلمة طريفة .

هذا هو هيكل المقامة باختصار ، وقد يكون في هذا الهيكل ما يوحي بوجود السخرية في المقامة وقد لا يكون . ولكن قرأة هذه المقامة قراءة متئدة تكشف عن طبيعتها الساخرة .

فعنصر الهزء الخفي الباسم يتخلل هذه المقامة الفذة من مطلعها حتى نهايتها . وقد نجح الهمذاني في ان يجعل من هذا التاجر البغدادى موضوع الهزء ، خير نموذج بشرى لهؤلاء الثقلاء من الناس الذين يحملهم ثقلهم على ان يشيدوا اشادة دائمة غير منقطعة بكل ما يمت اليهم بسبب : زوجة

.../...

التاجر ، كما وصفها ، احسن الزوجات ، والمحلة التي يسكنها اشرف المحلات ، وداره اجمل الدور ، و باب الدار مصنوع احذق صنع ، والنجار الذى انشأ الباب افضل النجارين ، وكذلك قل عن دهليز الدار ، وحصر الدار ، وغلام التاجر وكل عضو من اعضاء الغلام ، والطست والابريق ، والدست والماء، والمنديل والخوان ، وحتى كنيف الدار فهو ، " يزرى بربيعي الامير وخريفي الوزير". (٨)

كل هذه الدقائق الدقيقة يرويها الهمذاني بلهجة تترقرق فيها السخرية ترقرقا .

يمتدح التاجر زوجته فيقول مخاطبا ابا الفتح الاسكندرى " يا مولاى لو رأيتها والخرقة في وسطها وهي تدور في الدور من التنور الى القدور ومن القدور الى التنور تنفث بفيها النار وتدق بيديها الابزار ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل واثر في ذلك الخد الصقيل لرأيت منظرا تحار فيه العيون ". (٩)

ويمتدح التاجر محلته فيقول مخاطبا رفيقه " يا مولاى ترى هذه المحلة . هي اشرف محال بغداد يتنافس الاخيار في نزولها ، ويتغاير الكبار في حلولها ثم لا يسكنها غير التجار . وانما المرء بالجار". (١٠)

ويمتدح داره فيقول : " هذه دارى ، كم تقدر يا مولاى انفقت على هذه الطاقة ، انفقت والله عليها فوق الطاقة ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتها وشكلها . ارأيت بالله مثلها ، انظر الى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار ". (١١)

ويمتدح باب الدار والنجار الذى صنع الباب وحلقة الباب والذى صنع الحلقة فيقول : " انظر الى حذق النجار في صنعته هذا الباب . اتخذه من كم . . قل : ومن اين اعلم . . هو ساج من قطعة واحدة لا مأروض ولا عفن . اذا حرك ان ، واذا نقر طن . من اتخذه يا سيدى ؟ اتخذه ابو اسحق بن محمد البصرى ، وهو والله رجل نظيف الاثواب ، بصير بصنعة الابواب ، خفيف اليد في العمل . لله در ذلك الرجل . بحياتي لا استعنت الا به على مثله ، وهذه الحلقة تراها ، اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير معزية وكم فيها يا سيدى من الشبه ، فيها ستة ارطال وهي تدور بلولب من الباب . بالله دورها . ثم انقرها وابصرها . وبحياتي عليك لا اشتريت الحلق الا منه فليس يبيع الا الاعلاق ".(١٢)

ويمتدح حصيره فيقول : " اشتريت هذا الحصير في المناداة ، وقد اخرج من دور آل الفرات وقت المصادرات وزمن الغارات . وكنت اطلب مثله منذ الزمن الاطول فلا اجد . والدهر حبلى ليس يدرى ما يلد . . . تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه فهو عظيم القدر لا يقع مثله الا في الندر وان كنت سمعت بابي عمران الحصيرى فهو عمه وله ابن يخلفه الان في حانوته لا يوجد اعلاق الحصر الا عنده فبحياتي لا اشتريت الحصر الا من عنده ".(١٣)

.../...

يمتدح التاجر غلامه فيقول : " انه رومي الاصل عراقي النشء . تقدم يا غلام واحسر عن رأسك وشمر عن ساقك وانض عن ذراعك وافتر عن اسنانك واقبل وادبر ".(١٤)

ويمتدح ابريقه فيقول : " انظر الى هذا الشبه كأنه جذوة اللهب . او قطعة من الذهب . شبه الشام وصنعة العراق . ليس من خلقان الاعلاق . قد عرف دار الملوك ودارها . تأمل حسنه ".(١٥)

ويمتدح الماء الذي في بيته : " ازرق كعين السنور وصاف كقضيب البلور . استقي من الفرات واستعمل بعد البيات فجاء كلسان الشمعة في صفاء الدمعة ". (١٦)

ويمتدح منديله : " وهذا المنديل ... ادخرته للظراف من الاضياف . لم تبتذله عرب العامة بايديها ولا النساء لمآقيها ".(١٧)

ويمتدح بعد المنديل خوانه : " تأمل بالله هذا الخوان . وانظر الى عرض متنه وخفة وزنه وصلابة عوده وحسن شكله". (١٨)

ويمتدح آخر الامر كنيف داره : " يا مولاي تريد كنيفا يزري بربيعي الامير وخريفي الوزير قد جصص اعلاه وصهرج اسفله وسطح سقفه وفرشت بالمرمر ارضه . يزل عن حائطه الذر فلا يعلق ويمشي على ارضه الذباب فيزلق . عليه باب ، غير انه من خليطي ساج وعاج ، مزدوجين احسن ازدواج . يتمنى الضيف ان يأكل فيه".(١٩)

ترى من مجموع الامثلة التي اوردناها على تفاخر التاجر البغدادي بكل ما يتصل به من زوج او ملك او متاع ان الهمذاني وفق في تصوير هذا النموذج البشري توفيقا كبيرا . وقد تضمن هذا التصوير من عناصر الدقة في الملاحظة والتفطن للمفارقة والقدرة على الاداء الموجز المبهج ما هو كفيل بجعل هذه المقامة من آيات السخر العربي .

واية سخرية ادق واخبث من ان يجري الكاتب على لسان التاجر البغدادي ما اجراه عليه من احاديث هي لغة التغزل والتشبيب اشبه منها بلغة الحديث الطبيعي عن الزوج والدار وباب الدار والحصير والطست والابريق والغلام والخوان الخ .

واية سخرية اروع من هذا التجويد البليغ الدقيق في وصف ثقل الثقيل، تصور التاجر يسوق الاسئلة لضيفه ثم يجيب عنها بنفسه ،وضيفه لا يطلب سؤالا ولا يطيق جوابا :

" كم تقدر يا مولاي انفق على كل دار منها ، قله تخمينا ، ان لم تعرفه يقينا . قلت الكثير فقال : يا سبحان الله ما اكبر هذا الغلط. تقول الكثير فقط ".

.../...

" انظر الى حذق النجار في صنعه هذا الباب . اتخذه من كم
قل : ومن اين اعلم ".

" ... من اتخذه يا سيدى ، اتخذه ابو اسحق بن محمد"...
" ... وهذه الحلقة ... كم فيها من الشبه . فيها ستة ارطال" ...
" عمرك الله يا دار ... سلني كيف جمعتها وكم حيلة احلتها
حتى عقدتها ، كان لى جار "...

" ترى هذا الغلام ... بالله من اشتراه ، اشتراه والله ابو العباس".

" وهذا المنديل ، سلنى عن قصته ."

ويستطيع القارئ بيسر سبيل استحضار الصورة الساخرة التى ترسمها المقامة : ضيف جائع بعد الدقائق " للقاء " الطعام ، وضيف ثقيل يريد ان يفرض على ضيفه الاستماع الى حديثه الممل الطويل ، ويريد منه فوق ذلك ان يسأل مندهشا عن كل تفصيل من تفاصيل حديثه ، فاذا لم يفعل تولى هو بنفسه مهمتى السؤال والجواب .

ويا له من موقف يوقف هذا الضيف العجيب وهوينطلق انطلاق السيل في حديثه فاذا تميل في هذا الحديث فلكي يستحلف ضيفه المزهق الروح والاعصاب بما يعتبره جد عزيز عليه . اتعرف بماذا يحلفه بحياة التاجر نفسه ؟

" بحياتي عليك لا اشتريت الحلق الا من فلان" .
" بحياتي لا استعنت الا (بهذا الرجل) على مثل هذا (الباب)".
يقول الضيف هذا والله يعلم كم مرة دعا عليه الضيف بانقصاف العمر وهو يبدى في حديثه ويعيد .

والمضحك حقا ان التاجر البغدادى ، على استرساله في الحديث ، وايغاله في الاستطرادات ، بقي طيلة الوقت ذاكرا المضيرة ، فانه ، بعد كل مقطع من مقاطع كلامه ، كان يعود ابدا الى لازمة ثابتة : " نعود الى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة . يا غلام الطست والماء ."

ولكن هذا التمثل الدائم للمضيرة لم يكن ذا اثر عملي في اسراع التاجر باحضار الغداء ، حتى ضاق الضيف بحديث مضيفه غير المتناهي ، وهاله الامر حين استحضر فيذهنه الاشياء التي لا بد للتاجر من ايفائها حقها من الكلام .

" قال ابو الفتح : فجاشت نفسي وقلت : قد بقي الخبز والاته ، والخبز وصفاته والحنطة من اين اشتريت اصلا وكيف اكترى لها حملا وفي اى رحى طحن

.../...

واجانة عجن واي تنور سجر وخباز استأجر وبقي الحطب من اين احتطب ومتى جلب وكيف صنف حتى جفف وحبس حتى يبس وبقي الخباز ووصفه والتلميذ ونعته والدقيق ومدحه والخمير وشرحه والملح وملاحته وبقيت السكرجات من اتخذها وكيف انتقدها ومن استعملها ومن عملها والخل كيف انتقى عنبه او اشترى رطبه وكيف صهرجت معصرته واستخلص لبه وكيف قبر حبه وكم يساوي دنه وبقي البقل كيف احتيل له حتى قطف وفي اي مبقلة رصف وكيف تؤنق حتى نظف وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها ووفي شحمها ونصبت قدرها واججت نارها ودقت ابزارها حتى اجيد طبخها وعقد مرقها . وهذا خطب يطم وامر لا يتم ". (٢٠)

وهذه الكلمات التي ناجى بها ابو الفتح نفسه ساعة بلغ ضجره الذروة خليقة بان تعتبر من الطف السخر ، لانه بواسطتها صور لنا الكاتب ثقل التاجر تصويرا غير مباشر . فبدلا من ان يفتعل الهمذاني حادثة او صداما بين ابي الفتح ومضيفه تكون مناسبة للحملة على التاجر الثقيل عمد الى الهزء به هزوءا غير مباشر عن طريق هذه المناجاة الظريفة التي رسم فيها ابو الفتح باسلوب كاريكاتوري جميل نوع الاحاديث التي يخوضها التاجر .

ثم اي حرج عظيم هو هذا الحرج الذي لقيه ابو الفتح مع التاجر البغدادي ، حتى لم يجد من سبيل الى الخلاص سوى التذرع بحاجة يقضيها . ومع ذلك لم ينج . فقد كانت هذه الحجة فرصة سانحة امام التاجر للاشادة بكنيفه الذي " جصص اعلاه وصهرج اسفله وسطح سقفه وفرشت بالمرمر ارضه . يزل عن حائطه الذر فلا يعلق ويمشي على ارضه الذباب فيزلق " .

ويظهر ان ابا الفتح كان مستعدا لان يتحمل حتى هذه المزعجات التي لا تطاق ، لولا ان التاجر قد ذهب بثقله الى ما يتجاوز كل حساب ، فقال في مدح الكنيف : انه كنيف " ويتمنى المرء ان يأكل فيه " .

وهنا كاد ابو الفتح يفقد صوابه ، فخرج يعدو والتاجر يتبعه ويصيح به يا ابا الفتح المضيرة فيظن الصبيان ان المضيرة لقب لصاحبنا ، فيصيحوا صياح التاجر ، فيرمي ابو الفتح احدهم بحجر . فيصيب الحجر رأس رجل ذي عمامة ، فيأخذه الناس من النعال بما قدم وحدث ، ويحشر الى السجن ، حيث يمضي سنتين ، وينذر ان لا يأكل المضيرة ما عاش .

ويستطيع القارئ ان يتصور هذه المشاهد المضحكة التي تتوالى في المقامة حتى تبلغ ذروتها بهذا المشهد الاخير ، حيث تصبح ضيافة التاجر ، لا ازعاجا فحسب ، ولا ازهاقا للاعصاب فحسب ، بل جريمة سافرة ايضا .

واي شيء في السخر ابعد من ان يبلغ ثقل الدم حد الاجرام ؟ واي ختام اجمل من هذا الختام الموفق الذي صاغه البديع لمقامته المضيرية ، الخليقة بان تعتبر من آيات السخر .

. . . ... /... ...

٢) - المقـامة الشـامية -

وقـد حولها الى حوار الدكتور زكي مبارك في كتابه " النثر الفني "
(٢١) وهي مقامة طريفة لا نستطيع ايرادها لفحش معانيها .

ويلاحظ فيها القارئ تعرض البديع لاستثمار العنصر الجنسي في الهزء والاضحاك . ولطالما اضحك الناس الضرب على هذا الوتر ، ولطالما عمد الناس اسلوب السخرية بما فيه من تخشية وتخفية للهزء بنفر من الناس ، عن هذه الطريق الماجنة وقد اخترنا ذكر هذه المقامة باختصار وايجاز لتكون مثالا على بعض المواضيع التي اتخذها العرب ، والام جمعاء ، مادة غزيرة للضحك وبعض الاحيان للسخر .

. . .

٣) - المقـامة البغـدادية -

وتدور هذه المقامة على السخرية بفلاح اكول اوقعه نهمه فريسة لاحد شطار بغداد . وهي على قصرها حرية بالدراسة .

يقول الهمذاني : حدثنا عيسى بن هشام قال :

اشتهيت الازاذ وانا ببغداد وليس معي عقد على نقد فخرجت انتهز محاله حتى احلني الكرخ ، فاذا انا بسوادي يسوق بالجهد حماره ، ويطرف بالعقد ازاره فقلت : ظفرنا والله بصيد وحياك الله ابا زيد . من اين اقبلت ، واين نزلت ، ومتى وافيت . وهلم الى البيت . فقال السوادي : لست بابي زيد ، ولكني ابو عبيد ، فقلت نعم لعن الله الشيطان وابعد النسيان ، انسانيك طول العهد ، واتصال البعد ، فكيف حال ابيك ، اشاب كعهدي ام شاب بعدي ! فقال : قد نبت الربيع على دمنته وارجو ان يصيره الى جنته . فقلت : انا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ومددت يد البدر ، الى الصدار ، اريد تمزيقه ، فقبض السوادي على خصري بجمعه ، وقال : نشدتك الله لا مزقته . فقلت : هلم الى البيت نصب غذاء او الى السوق نشتري شواء ، والسوق اقرب ، وطعامه اطيب . فاستفزته حمية اللقم ، وعطفته عاطفة اللقم ، وطمع ، ولم يعلم انه وقع ، ثم اتينا بشواء يتقاطر شواؤه عرقا وتتسايل جوباذاته مرقا ، فقلت : افرز لابي زيد من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، وخذ له من تلك الاطباق وانضد عليها اوراق الرقاق ورش عليه شيئا من ماء السماق ليأكله ابو زيد هنيا . فانحنى الشواء بساطوره ، على زبدة تنوره ، فجعلها كالكحل سحقا ، وكالطحن دقا ، ثم جلس وجلست ، ولا يئس ولا يئست ، حتى استوفينا . وقلت لصاحب الحلوى زن لابي زيد من اللوزينج رطلين فهو اجرى في الحلوق وامضى في العروق وليكن ليلي العمر ، نهاري النشر ،

.../...

رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤى الدهن ، كوكبي اللون ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ليأكله ابو زيد هنيا . فقال : فوزنه ثم قعد وقعدت ، وجرد وجردت ، حتى استوفيناه . ثم قلت يا ابا زيد ما احوجنا الى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصارة ويفثأ هذه اللقم الحارة ، اجلس يا ابا زيد حتى نأتيك بسقاء ، يأتيك بشربة ماء . ثم خرجت وجلست بحيث اراه ولا يراني انظر ما يصنع فلما ابطأت عليه قام السوادى الى حماره ، فاعتلق الشواك بازاره ، وقال : اين ثمن ما اكلت . فقال ابو زيد : اكلته ضيفا فلكمه لكمة وثنى عليه بلطمة ، ثم قال الشواء : هاك ، ومتى دعوناك ، زن يا اخا (...) عشرين فجعل السوادى يبكي ويحل عقده باسنانه ويقول : كم قلت لذاك القريد انا ابو عبيد وهو يقول : انت ابو زيد"...(٢٢)

ولا ريب ان القارئ قد لحظ في ثنايا هذه المقامة ، بل فيها جملة وتفصيلا سخرية ظاهرة . فكل ما نطق به عيسى هشام هو من صميم السخر .

تأمل كيف يصف عيسى هذا السوادى عندما تقع عينه عليه يقول : " سوادى يسوق بالجهد حماره ويطرف بالعقد ازاره " . واننا لنلمح في هذا الوصف ـ ولا سيما في عبارة " يسوق بالجهد حماره " ـ غاية السخر ، فكأن هشاما يريد ان يقول بلهجة خفية ان هيئة السوادى كانت توحي بانه غير قادر على التعامل مع مخلوق اذكى من الحمار .

ثم انظر الى هذا الهزء الخفي الذى يتخلل الكلمات المتلاحقة التي استهل بها هشام حديثه مع الفلاح : حياك الله ابا زيد ، من اين اقبلت ، واين نزلت ، ومتى اقبلت ، وهلم الى البيت ".

وانظر اليه وهو يبرر للفلاح عدم تعرفه الى اسمه الحقيقي " فقال السوادى : لست بابي زيد ولكن ابو عبيد ، فقلت : نعم ، لعن الله الشيطان وابعد النسيان ، انسانيك طول العهد ، واتصال البعد ".

واسمع حديثه عن ابي الفلاح " كيف حال ابيك اشاب كعهدى ام شاب بعدى . فقال : قد نبت الربيع على دمنته ، وارجو ان يصيره الى جنته . فقلت انا لله وانا اليه راجعون لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم".

فاذا علمت ان هشاما لا يعرف شيئا عن ابي زيد ، ولا عن والد ابي زيد ، واذا ادركت انه لا يعرف لرأس الوالد سوادا او شيبا عرفت اى هزء خبيث يكمن وراء هذه الكلمات .

ثم ذلك الفلاح المغفل ... تصور ان هشاما قد اخطأ مرتين : مرة باسمه ومرة بوالده ، والسوادى لا يخامره شك في امره . لا بل ان يحسنه من اخلاص هشام بلغ به حد الشفقة عليه وهو يتبلغ خبر موت الوالد العزيز فينشده الله ان لا يمزق عليه الجيب . فكأن المفجوع هو عيسى بن هشام لا الابن المحروس .

.../...

وكذلك المقطع الذى يصور اكرام عيسى العظيم للسوادى وهو في المطعم ، فانه من خالص السخر، وصفى الهزء : " افرز لابي زيد من هذا الشواء ، ثم زن لـه من تلك الحلواء . واختر لـه من تلك الاطباق وانضد عليها اوراق الرقاق ورش عليه شيئا من ماء السماق ليأكله ابو زيد هنيا . . ." ثم " . . . زن لابي زيد من اللوزينج رطلين فهو اجرى على الحلوق وامضى في العروق وليكن ليلي العمر ، نهارى النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤى الدهن ، وكوكبي اللون ، يذوب كالصمغ قبل المضغ".

وهكذا نجد هشاما ينفذ " مؤامرته " ، ويحقق مأربه ، وهو يتظاهر للسوادى بمظهر الضيف المفرط في رعاية الضيافة ، والصديق الذى لا يأنف عن القيام نحو صديقه باحقر الخدمات . ويبلغ هذا التظاهر ذروته حين يدير عيسى فراره من محل الشواء ، والسوادى يظن انه يؤدى له الخدمة التي لا يؤديها لاصدقائهم الا ذوو الغيرة والهمة : يا ابا زيد ما احوجنا الى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصاره ويفثا هذه اللقم الحاره ، اجلس يا ابا زيد حتى نأتيك بسقاء ، يأتيك بشربة ماء " ويخرج هشام الى غير عودة .

وفي المقامة دقائق اخرى كثيرة خليقة بان تلفت النظر بما فيها من سخر . منها ما يصف به عيسى بن هشام الفلاح السوادى اذ يقول انه قد " اخذته حمية القوم ، وعطفته عاطفة اللقم ". و في لفظتي حمية وعاطفة في هذا الموضع ما فيهما من حبث . ومنها كذلك موقف السوادى حين سأله الشواك وقد اعتلق بازاره لا يريد ان يدعه يخرج : اين ثمن ما اكلت ، فاجابه صاحبنا ببساطة : اكلته ضيفا ، ومنها ايضا الطريقة التي علق بها السوادى على كل ما حدث : كم قلت لذلك القريد : انا ابو عبيد وهو يقول انت ابو زيد .

وان في هذه الدقائق كلها ، بالاضافة الى ما ذكرناه عن سواها ، ما يوضح الجانب الساحر لهذه المقامة الممتعة .

. . .

٤) - المقامة الحلوانية -

وقصة هذه المقامة هي ان عيسى بن هشام قفل يوما من الحج طويل الشعر متسخ البدن ، فطلب من غلامه ان يختار له حماما واسعا نظيف البقعة طيب الهواء معتدل الماء وحجاما (حلاقا) خفيف اليد حديد الموسى نظيف الثياب قليل الفضول (٢٣) . فدله الغلام على حمام من حمامات المدينة ولكن عيسى ما كاد يدخل الحمام حتى وقع في سلسلة من المشاكل : اثنان من العمال يدعي كل منهما ان له الحق براس عيسى ، فيتشاجران

. . ./ . . . .

ويتلاكمان ، ثم يحتكمان الى صاحب الحمام فيسأل هذا عيسى بن هشام : لا يهما الراس المختلف عليه ؟ فيجيب عيسى آن هذا راسه ، فيترك صاحب الحمام ويميل الى احد المتخاصمين ، " الى كم هذه المنافسة مع الناس بهذا الراس ... هب ان هذا الراس ليس وانا لم نر هذا التيس " (٢٤) فيخرج عيسى من الحمام خجلا وجلا ، ويجازى غلامه على سوء تدبيره ثم يطلب من غلام اخر ان يأتيه بحجام مناسب . فاذا الحجام اللطيف البنية ، المليح الحلية ، الجميل الصورة في الظاهر ، ما يكاد يقف عند راس عيسى حتى ينطلق في هذيان يحير اللب ، فيصرفه عيسى متعجبا منه ويسأل عنه من حضر فيعرف " انه رجل من بلاد الاسكندرية لم يوافقه ماء حلوان فغلبت عليه السوداء وهو طول النهار يهذى ووراءه فضل كثيرا ".(٢٥)

هذه قصة المقامة . وهي عند قراءتها في الاصل مليئة بالسخر الدقيق الجميل .

فمن المواقف الساخرة فيها موقف الغلام وهو يبلغ معلمه انه قد اختار له حماما " كما رسم " . واين ما رسم المعلم مما رأى ؟ اراد حماما واسع الرقعة نظيف البقعة طيب الهواء معتدل الماء فاذآ به يلقى عكس ذلك تماما .

ومن المواقف الساخرة موقف العاملين وقد رفعا قضيتهما الى صاحب الحمام .
قال الاول : انا صاحب هذا الرأس لاني لطخت جبينه ووضعت عليه طينه .
فقال الثاني : بل اني مالكه لاني دلكت حامله وغمزت مفاصله (٢٦).
والطريف ان كليهما يتحدث عن راس الزبون بلهجة المالك ذى الحق المطلق في التصرف بملكه ، ويسوق الحجة التي يؤمن بانها لا يمكن ان تكون موضع نزاع . وليست في الحقيقة الا سخفا في سخف . وهذا هو السخر بعينه .
اما حكمة الحكم فهي اشد طرافة ، واغرب وجها ، من دعوى الخصمين .
" يا رجل لا تقل غير الصدق ولا نشهد بغير الحق ... قل لي : هذا الراس لا يهما ؟ (٢٧) (الكلام موجه للزبون صاحب الراس) .

فاذا شهد الزبون بان الراس راسه وراح يدلل على ما يقول بانه " الراس الذى صحبه في الطريق وطاف معه بالبيت العتيق " (٢٨) اسكته الحمامي بغاية الحنق ، ثم مال الى احد الخصمين بقوله : الى كم هذه المنافسة مع الناس بهذا الراس ، تسل عن قليل خطره الى لعنة الله وحر سقره . وهب ان هذا الراس ليس ، وانا لم نر هذا التيس .

فكأن حل القضية الاكمل هو في اعتبار راى عيسى غير موجود ، واعتبار شخص عيسى تيسا من التيوس .

ولا يقل عن ذلك سخرا وطرافة موقف الحجام الذى اتى به غلام عيسى الثاني .

.../...

اسمعه يقول ، بعد ان سأل عيسى عن بلده فاجابه بانها قم :

" حياك الله من ارض النعمة والرفاهة ،وبلد السنة والجماعة . ولقد حضرت في شهر رمضان جامعها وقد اشعلت فيه المصابيح واقيمت التراويح فما شعرنا الا بعد النيل ، وقد اتى على تلك القناديل . لكن صنع الله لي بخف قد كنت لبسته رطبا فلم يحصل طرازه على كمه وعاد الصبي الى امه بعد ان حلكت العتمة واعتدل الظل ولكن كيف مان حجك هل قضيت مناسكه كما وجب ؟ وصاحوا : العجب العجب فنظرت الى المنارة وما اهون الحرب على النظارة ووجدت الهريسة على حالها وعلمت ان الامر بقضاء من الله وقدر ، والى متى هذا الفجر واليوم غد والسبت والاحد ولا اطيل . وما هذا القال والقيل . ولكن احببت ان تعلم ان المبرد في النحو حديد الموسى . فلا تشتغل بقول العامة . فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل اكنت قد حلقت راسك فهل ترى ان نبتدى" (٢٩) .

ووجه السخر في هذا الكلام ان البديع استطاع ان يأتي في تقليد "المنطق الجنوني " اذا صح التعبير بالعجب . فمن الحديث عن قم بلد السنة والجماعة ، الى الحديث عن ليلة من ليالي رمضان صلى فيها المجنون في احدى المساجد ، الى الكلام عن خف لبسه المجنون في مناسبة امتد فيها النيل ، الى ذكر الصلاة في العتمة عند اعتدال الظل (!) الى المنارة ، الى صباح الناس : العجب العجاب ، الى الهريسة ، الى القضاء والقدر ، الى معنى المبرد في النحو ، الى علاقة الحلاقة بالتخيير والتسيير ، الى غير ذلك من الحوادث والقضايا والهموم التي لا تربط بينها رابطة ما . والبراعة في هذا المقطع هي ان الذى يسمع اللفظ من غير ان يفقه معانيه يحسب انه يسمع جدا خالصا ، ومنطقا صرفا ، حتى اذا تفطن الى سخف المعاني ، وفوضى الافكار ، انقلب المقطع في عينيه آية من آيات الجنون .

وان يستطيع عاقل ان يأتي بكلام خليق بان يعتبر آية من آيات الجنون ، لهو السخر الذى ما بعده سخر !

ولعل من اعمق الهزء الخفي السار في هذه المقامة الكلمة التى انهى بها البديع مقامته اذ وصف له احد الحاضرين هذا الحلاق العجيب ، قائلا : " هذا رجل من الاسكندرية لم يوافقه هذا الماء فغلبت عليه السوداء وهو طول النهار يهذى كما ترى ، ووراءه فضل كثير " .

فتأمل هذا الفضل الكبير ينسبه صاحب المقامة الى شيخ من شيوخ المجانين ثم احكم اى روح ساخرة املت هذه المقامة البديعة !

.../...

هامش الفصل الخامس

١) - مبارك ، زكي ، النثر الفني ، ج ١ ، ١٩٧
٢) - مبارك ، زكي ، النثر الفني ، ج ١ ، ٢٠٤
٣) - مبارك ، زكي ، النثر الفني ، ج ١ ، ٢٠٤
٤) - بروكلمان ، ابن نباته السعدى .
٥) - الثعالبي ، يتيمة الدهر ، دمشق ١٣٠٢ ، ج ٤ - ١٦٧
٦) - الحصرى ، زهر الاداب ، ج ١ ، ٣٠٧
٧) - ياقوت ، معجم الادباء ، ج ١ ، ٨٥
٨) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، مطبعة الاعتماد ١٣٢٤ ، ١٣٦
٩) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١١٨
١٠) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١١٩
١١) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٢١
١٢) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٢١
١٣) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٢٦
١٤) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٢٨
١٥) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٣٠
١٦) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٣١
١٧) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٣١
١٨) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٣٢
١٩) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٣٦
٢٠) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٣٣
٢١) - مبارك ، النثر الفنى ، ج ١ ، ١٣٢
٢٢) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ٦٦
٢٣) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٢٤
٢٤) - الهمذاني و مقامات الهمذاني ، ١٢٨
٢٥) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٣٤
٢٦) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٣٧
٢٧) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٢٧
٢٨) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٢٧
٢٩) - الهمذاني ، مقامات الهمذاني ، ١٢٩

.../...

الفصل السادس

رسائل ساخرة

١) - رسالة في التطفل .
٢) - رسالة تعزية في ثور .
٣) - رسالة في صفة بستان .
٤) - رسالة الى البديهي الشاعر .
٥) - رسالة الحلواء .

....

لم نجد بين مترسلي القرن الرابع من تصح دراسته كشخصية ادبية ساخرة على النحو الذى تناولنا فيه الجاحظ ، او حتى بديع الزمان . ومع ان الرسالة هي الفن الاكثر طواعية لروح السخر لم نعرف من اربابها من يستحق ان نسميه " اديبا ساخرا " ، بما في الكلمة من معنى . فانصرفنا الى دراسة النتاج الترسلي الساخر الذى اخرجه ابناء القرن الرابع من غير ان نبحث في اصحابه كساخرين وهذه هي الرسائل التى وجدناها جديرة بالدراسة من زاوية السخرية .

. . .

١) - رسالة في التطفل -

رسالة اقترحها معين الدولة ابن بويه الديلمي على ابى اسحق الصابي*. " لرجل كان عنده اسمه عليكا ينسب الى التطفل ، ويسخر منه السلطان بسبب ذلك ".(٢)

يقدم ابو اسحق للعهد الذى انشأه لعليكا المذكور بما يلي :

" هذا ما عهد علي بن احمد المعروف بعليكا الى علي بن عرس الموصلي ، حين استخلفه على احياء سننه ، واستنابه في حفظ رسومه من التطفل على اهل مدينة السلام وما يتصل بها من ارباضها واكنافها ويجرى معها في سوادها واطرافها لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء وكثرة اللقم وجودة الهضم ورآه اهلا له من سد مكانه والرفاهية المهملة التى فطن لها ، والرقاعة المطرحة التى اهتدى اليها والنعم العائدة على لابسيها بملاذ الطعوم وخصب الجسوم ".(٢)

---

* من امراء البيان في القرن الرابع . تدل الكتابة لعز الدولة . بختيار بن بويه ، وسجن عندما تولى الدولة عضد الدولة توفي ٣٨٤ (ياقوت ج ١ - ٣١٤)

.../...

وبعد هذا التقديم ، يلي العهد المذكور : وهو مؤلف من اثني عشر امرا لم يأل فيها عليكا خليفته " ارشادا وتوفيقا وتهذيبا وتثقيفا وبحثا وتبصيرا وحثا وتذكيرا".

اما الامر الاول فينص على تقوى الله وعدم الاقدام على ما كره وانكر ، او التقاعس عما احب وامر .

وينص الثاني على وجوب التأدب بادب عليكا والوقوف على حدوده فيما اباح وحظر .

وينص الثالث على ضرورة التأمل في اسم التطفيل ومعناه وفي ان السنة في المطعم للهاجم الاول وفي المشرب للوارد الواغل .

وينص الرابع على اعتياد موائد الكبراء والعظماء .

وينص الخامس على اتباع ما يعرض لموسرى التجار ومجهزى الامصار من وكيزة الدار والعرس والاعذار .

وينص السادس على مصادقة قهارمة الدور ومديريها ومرافقة وكلاء المطابخ وحاليها .

وينص السابع على تعهد اسواق المسوقين ومواسم المتبايعين فاذا رأى الطفيلي وظيفة قد زيد فيها ، واطعمه قد احتشد مشتريها ، اتبعها الى المقصد بها ، وسبقها الى المنزل الحاوى لها .

وينص الثامن على نصب الارصاد على منازل المغنيات والمغنين ، فاذا اتاه خبر لجمع يضمهم ... ضرب اليها اعناق ابله .

وينص التاسع على تجنب مجامع العوام المقلين ... فانها عصابة يجتمع لها ضيق النفوس والاحلام .

وينص العاشر على حذر الخوان اذا وضع والطعام اذا نقل حتى يعرف بالحدس والتقريب والبحث والتنقيب عدد الالوان في الكثرة والقلة .

و ينص الحادى عشر على " رياضة النفس ومغالطة الحس والضرب عن كثير مما يلحق (الطفيلي) صفحا".

وينص الثاني عشر وهو الاخير على الاكثار من الاشياء " المنفذة للسدد ، المقوية للمعد ، المشهية للطعام ، المسهلة لسبل الانهضام ".

هذه هي الاوامر الاثنا عشر التي ضمنها ابو اسحق عهد عليكا لخليفته ، وهي ، مع المقدمة التي اشرنا اليها اعلاه ، جماع الرسالة المسماة برسالة التطفيل .

.../...

والذى يلاحظه القارئ من قراءة ما تقدم ان قوام الرسالة انما هو السخر بعليكا هذا . فهي في الظاهر سرد واقعي ومعقول للشروط التي تؤمن النجاح الكامل لكل راغب في التطفل . ولكنها في الحقيقة هزء بالتطفل وكل ما اليه من غايات واساليب ، ولا يمكننا ان نفهما الا على هذا الاساس ، ما دام الذى اقترح تحريرها هو الوزير الخطير معين الدولة ابن بويه ، والذى انشأها ابو اسحق الصابي ، الرجل الفاضل الجاد .

فانظر ما يقوله في الامر الثالث ، ثم احكم على روح السخر في الرسالة :

" وامره ان يتأمل اسم التطفيل ومعناه ويعرف مغزاه ومنحاه ، ويتصفحه تصفح الباحث عن حظه بحموده ... فان كثيرا من الناس قد استقبحه عن فعله ، وكرهه لمن استعمله ، ونسبه فيه الى الشره والنهم ، وحمله منه على النفه والقرم ...(والتطفل) مشتق من الطفل وهووقت المساء واوان العشاء... وقد سبق امامنا بيان * رحمة الله عليه الى الامر سبقا اوجب له خلود الذكر فهو باق بقاء الدهر ومتجدد في كل عصر ، وما نعرف احدا نال من الدنيا حظا من حظوظها فبقي له منه اثر يخلفه ، وحيث يستبد به الا هو وحده ، فبيان رضوان الله عليه يذكر بتطفيله كما تذكر الملوك بسيرها ، فمن بلغ الى نهايته ، او جرى الى غايته ، سعد بغضارة عيشه في يومه ونباهة ذكره في غده ، جعلنا الله جميعا من السابقين الى مداه ، والمذكورين كذكراه " . (٣)

فما ظنك ايها القارئ بهذا الدفاع عن التطفل ، وما ظنك ببيان ، رضوان الله عليه .

ثم اسمعه يقول في الامر الخامس حيث يوصي الطفيلي بان يعرض لموسرى التجار : " ان هؤلاء ربما جروا على تطفيل المتطفلين واغضوا على تهجم الواغلين ليتحدثوا بذلك في محافلهم الرذلة ، ويعدوه في مكارم اخلاقهم النذلة ... فاذا اهتدى الاريب الى طرائف هذه الطائفة وصل الى بغيته من اعلان قضيتها وفاز بمراده من ذخائر حسنتها " .(٤)

وهكذا نجد الكاتب يوصي الطفيلي ان لا يعف عن استثمار ميل التجار الى " التبجح باتساع طعامها ، والمباهاة بكثرة حطامها " .

.../...

---

* _ ذكر ابن عبد ربه في العقد ،(ج ٣ ، ٢٣٧) ان اول الطفيليين هو طفيل العرائس ، لا بيان رضوان الله عليه .

اما الامر السادس القاضي " بمصادقة قهارمة الدور ومديريها ومرافقة وكلاء المطابخ وحماليها " لانهم " يملكون من اصحابهم ازمة مطاعمهم ومشاربهم " . فهو من آلم السخر ، وابعد الهزء .(٥)

وكذلك قل عن الدعوة الموجهة الى الطفيلي في الامر التاسع يتجنب مجامع العوام المقلين ومحافل الرعاع المقترين وعدم تعفير الفم بماكلها ، فانها تخفي سخرية لاذعة . اليس عجيبا ان يصدر مثل هذا الاحتقار نحو اى كان من الناس من جانب طفيلي ؟ اليس عجيبا هذا الاباء الغريب الذى ليس له من سبب سوى فقر هذه الطبقة من الناس ؟

وهذه النصائح الجليلة التي يسوقها الكاتب في الامرين العاشر والحادى عشر ما عسانا ان نقول فيها : ان يحزر الطفيلي الخوان والطعام حتى يعرف عدد الالوان فيقدر لنفسه ان يشبع مع اخرها وينتهي منها عند انتهائها ، ويسلم من عواقب الاغمار الذين يكفون تظرفا ويقلون تأدبا وان يروض نفسه ويغالط حسه ، ويعبر على الكزة في حلقه حتى الوصول الى حقه ، وعلى الصنعة تقع في رأسه كرامة لموقع اضراسه وان ... وان ... وان ... مما لا يخطر على باب احد اللهم الا بال طفيلي .

هذه الاشياء جميعا لا يجوز ان تنسب لغير السخر ، فالهزء فيها كالخفاء والاطراف عناصر بارزة . ونحن لا نستطيع الا ان نسجل ان هذه الرسالة شبيهة برسالة اخرى لصابي اخر اخذناها كذلك مثالا على السخر العربي في القرن الرابع ، وان بين الرسالتين شبها ظاهرا هو ان كليهما قد كتب بناء على طلب من وزير ، وان هذا الامر حرى بان يفسر لنا بوضوح ما جاء في صبح الاعشى من " انه ربما اعتنت الملوك ببعضه (بعض الهزل او المزح) فاقترحت على كتابها انشاء شيء من الامور الهزلية فيحتاجون الى الاتيان بها على وفق غرض ذلك الملك ". (٦)

. . . .

٢) - رسالة تعزية في ثور -

كتب هذه الرسالة ابو الخطاب الصابي * عن ابن لعبة ايام وزارته الى ابي بكر قريعة يعزيه عن ثور ابيض كانت قد حكيت حكايات في حزنه عليه .(٧)

يورد ابو الخطار الصابي في مطلع الرسالة الاسباب التي تجعل من التعزية بالفقود فرضا واجب الاداء فيقول :

.../...

---

* - لعله ابو اسحق الصابي . ومع ان الاسم ورد كذلك في زهر الاداب (الجزء الرابع ، ١٠) فقد اورده الدكتور زكي مبارك في الجزء الاول من النثر الفني (١٤١) على انه ابو اسحق .)

" التعزية على المفقود اطال الله بقاء القاضي انما تكون بحسب محله من فاقده ، من غير ان تراعي قيمته ولا قدره ولا ذاته ولا عينه ، اذ كان الغرض فيها تبريد الغلة واخماد اللوعة وتسكين الزفرة وتنفيس الكربة ، فرب ولد عاق ، واخ مشاق ، وذي رحم اصبح لها قاطعا ، وقريب قوم قد قلدهم عارا ، وناط بهم شنارا ، فلا لوم في ترك التعزية عليه ، واحر بها ان تكون تهنئة بالراحة منه ، ورب مال صامت غير ناطق قد كان صاحبه به مستظهرا ، وله مستثمرا ، فالفجيعة به اذا فقد موضوعة موضعها والتعزية عنه واقعة منه موقعها ". (٨)

ثم ينتقل الى ذكر حزن القاضي وما يبرر هذا الحزن من فضائل خص الله بها المفقود .

" وقد بلغني ان القاضي اصيب بثور كان له فجلس للعزاء عنه شاكيا ، واجهش عليه باكيا ، وللندم عليه والها ، وحكيت عنه حكايات في التأبين له ، واقامة الندبة عليه ، وتعديد ما كان فيه من فضائل البقر التي تفرقت في غيره ، واجتمعت فيه وحده ، فصار كما قال ابو نواس في مثله من الناس :

ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد :

لانه يكرب الارض معمورة ، ويثيرها مزروعة ، ويدور في الدواليب ساقيا ، وفي الارجاء طاحنا ، ويحمل الغلات مستقلا ، والاثقال مستخفا ، فلا يؤذيه عظيم ، ولا يعجزه جسيم ، ولا يجرى في الحائط مع شقيقه ، ولا في الطريق مع رفيقه الا كان جلدا لا يسبق ، ومبرزا لا يلحق ، وفائتا لا ينال شأوه وغايته ولا يبلغ مداه ونهايته ."(٩)

ثم يعرب الصابي بعد ذلك عن حزنه هو الاخر على الثور .

" ويشهد الله ان ما ساءه ساءني ، وما آلمه آلمني ، ولم يجز عندي في حق وده استصغار خطب جل عنده فارمضه وارقه وامرضه واقلقه فكتبت هذه الرقعة فاصابها من الجوى في مصابه هذا بقدر ما اظهر من اكباره اياه ، وابان من اعظامه له ".

ثم يسأل للثور الجنة :

" واسأل الله تعالى ان يخصه من المعوضة بافضل ما خص به البشر ، عن البقر ، وان يفرد هذه البهيمة العجماء باثرة من الثواب يضيفها الى المكلفين من ذوى الالباب ".

ويحتج لذلك بانها ، وان لم تكن منهم (اى ذوى الالباب) فقد " استحقت ان لا تفرد عنهم بان مس القاضي سببها وصار اليه منتسبها " .

ثم يتمنى للقاضي لقاء الثور بالجنة .

" حتى اذا انجز الله ما وعد ... واورد القاضي ايده الله تعالى موارد اهل النعيم ، مع اهل السراط المستقيم ، جاء وثوره هذا مجنوب معه ، مسموح له به " . (١٠)

هذا ويكون الثور قد انقلب في النعيم الى غير ما هو عليه " وكما ان الجنة لا يدخلها الخبث ، ولا يكون من اهلها الحدث ، ولكنه عرق يجرى من اعراقهم كذلك يجعل الله ثور القاضي مركبا من العنبر الشحرى ، وماء الورد الجورى ، فيكون له جوقه " .

ويخلص الى القول بان هذا ممكن وغير مستصعب لان الله قادر على كل شيء ، ولانه " اعد لعباده الصادقين واوليائه الصالحين ان يرثوا من شهوات انفسهم ملاذ اعينهم " .

وهل تبرد كبد القاضي بغير ثوره ؟

ان هذه الرسالة طافحة بالسخر ، بل ليس فيها غيره اطلاقا .
فالتعزية من اصلها مسألة هزء وطرافة . ويزيد في طابعها الساخر انها في موضوع تعزية ، اى ابعد المقامات عن الهزل ، وانها موجهة الى قاضي ، اى الى اوقر فئات البشر ، وانها قد ضيفت بمنطق لا شبهة فيه من حيث الظاهر ، ولا مأخذ عليه من حيث الشكل .

صحيح ان التعزية بثور غير مألوفة . ولكن من ينكر " ان التعزية على المفقود انما تكون بحسب محله من فاقده من غير ان تراعي قيمته ولا قدره ، ولا ذاته ، ولا عينه ، اذ كان الغرض فيها تبريد الغلة والخماد اللوعة وتسكين الزفرة وتنفيس الكربة . فرب ولد عاق ، واخ مشاق وذى رحم اصبح لها قاطعا وقريب قوم قد قلدهم عارا ، وناط بهم شنارا ، فلا لوم في ترك التعزية عنه ... ورب مال صامت غير ناطق ... الفجيعة به موضوعة موضعها " .

وصحيح كذلك ان بكاء القاضي على الثور وندمه عليه وتأبينه له خارجة عن دائرة العرف . ولكن افليس المفقود هو الثور ، " الذى يكرب الارض معمورة ، ويثيرها مزروعة ، ويدور في الدواليب ساقيا ، وفي الارجاء طاحنا ، ويحمل الغلات مستقلا " .

وصحيح ايضا ان طلب الجنة للبقر غير معهود . ولكن اليس " ان القاضي قد مس سببها وصار اليه منسيها " وان قدرة الله بذلك محيطة وانه قد وعد الصالحين الصادقين - ومنهم القاضي - بتحقيق شهوات نفوسهم وتيسير ملاذ اعينهم في العالم الاخر ؟

وتركيب الثور من العنبر الشحرى ، وماء الورد الجورى ، اليس ذلك معقولا في جنة لا يدخلها الخبث ، ولا يكون من اهلها الحدث ؟

.../...

ان جميع ما قدمناه من شواهد على طريقة الصابي في هذه الرسالة ينبئنا بانها رسالة ساخرة قد توفر فيها معظم ما يجب ان يتوفر في قطعة من القطع الفنية من عناصر ومزايا حتى يصبح نعتها بالسخر . ولولا ان غايتنا لا تشمل التوسع في ابراز المزايا الفنية البحتة لما تناوله من اثار ، لحاولنا في هذا الميدان محاولة طويلة استهدفنا من ورائها ايفاء هذه القطعة بعض حقها من الدراسة الفنية .

. . .

٣) - رسالة في صفة بستان -

وهي رسالة (١١) من الخوارزمي * خليقة بان تستوقف النظر - على قصرها واقتضابها - : من القطع التي لا يسهل استيعابها لاول مرة - اوعلى الاصح من الرسائل التي لم نستوعبها نحن الا بعد جهد . ولعلنا قد غادرناها و في النفس شيء من الغموض ازاء بعض دقائقها .

تبدأ الرسالة بما يلي :

" البستان قد وعدتني يا سيدى اقامة وظيفته بالشجر وبالنور والزهر وانت يا سيدى بالانجاز تمين ، ووفاؤك به همين " .

ثم ينتقل صاحبها فجأة الى القول :

" وذلك المكان مرتع ناظرى ومتنفس خاطرى ومجال بصرى ومدار فكرى ومنهلي اذا شربت ومحدثي اذا خلوت ومصلاتي اذا اعتمت وشمامتي اذا اشتممت وما ظنك بمكان ليس فيه زاوية الا وقد صبت عليفيها كأس بل طاس وشرب عليها انسان بل اناس وتام في حافتها وجه صبيح وتقلب في اطرافها قد مليح ". (١٢)

ويقول :

" وكأني بك و قد عرضت هذا الفصل على الناس فظنوا اني اصف بستان الزهر او دار ابن ابي ظاهر ، او اذكر الجعفرية ، او البركة المتوكلية ، او اعني سغد خراسان او شعب بوان او انعت نهر الابلة او منتزه الغوطة او شعب انطاكية " . (١٣)

وهنا يفاجئنا الخوارزمي بما لم نكن ننتظر فيذكر ان الامر على خلاف ذلك تماما ، ويقول :

ولا يعلمون انى انما اذكر بقيعة طولها باع وعرضها ذراع اعني باع البقة وذراع الذرة واقل من لا واصغر من الجزء الذى لا يتجزأ . لو طارت

---

* من المترسلين اصحاب الاساليب في القرن الرابع ، ومن العقول القوية في الفكر العربي ، والده من خوارزم ، اما هو فقد سكن في دمشق وفي نواحي حلب . ومات في نيسابور سنة ٣٩٣ (ابن خلكان ٣٥٦) .

٠٠٠/٠٠٠

عليها ذبابة لغطتها او دخلتها نملة لسدتها تسقى بالسعط صباحا وتنكت بالخلال مساء اشجارها مائة الا تسعة وتسعين وانهارها خمسون الا تسعة واربعين .

ويتبع الخوارزمي وصف البستان هذا بقوله :

واني لشاعر اذا احسن من لسانه بسطه ووجد في خاطره فضله واصاب من القول جريانا ووجد ميدانا قال ما وجدت بيانا".

ثم يتحدث عن الشعراء عامة :

" وما ظنك بقوم الاقتصاد محمود الا منهم والكذب مذموم الا فيهم اذا ذموا ثلبوا واذا مدحوا سلبوا ... الخ ".

وهذه الرسالة تشغل ذهن قارئها بعدة اسئلة : منها لمن البستان ، ألكاتب الرسالة ام للمكتوبة اليه ؟ ومنها : ماذا قصد الخوارزمي بمدح البستان ، ثم ذمه ، امجرد التلاعب الفني ؟ ام تقديم المثال على افتنان الشعراء" غير المحمود اقتصادهم " . غير المذموم كذبهم " ؟

ومهما يكن الجواب على هذه الاسئلة ، فان عنصر السخر يظل بارزا في القطعة - وان جاء فيها من طراز غريب .

ووجه السخرية في القطعة هذا البون الشاسع الذى يفرق بين البستان كما وصفه في اول الرسالة وبينه كما وصفه في وسطها .

فبينا هو مرتع الناظر ومتنفس الخاطر ومجال البصر ومدار الفكر والمنهل عند الشرب والمحدث في الحلوة والمصلاة وقت الاعتام والشمامة آن الاشتمام ، ليست فيه زواية الا وقد صب فيها كاس بل طاس . وشرب عليها انسان او ناس ونام في حافتها وجه صبيح وتغليفي اطرافها قد مليح .

بينا البستان كذلك ، واذا هو بقبضة طولها باع عرضها ذراع ، باع البقة وذراع الذرة ، واقل من لا واصغر من الجزء الذى لا يتجزأ لو طارت عليها ذبابة لغطتها او دخلتها نملة لسدتها تسقى بالسعط صباحا وتنكت بالخلال مساء اشجارها مائة الا تسعة وتسعين وانهارها خمسون الا تسعة واربعين .

وتكفي المقابلة بين الصورتين المتناقضتين حتى تتم الصورة الساخرة . فكيف تكون الحال اذا وقفنا عند اللهجة " الغزلية " التي يتحدث بها الكتاب عن البستان ، وكانما يتحدث عن حبيبه لا يدرى بماذا يصفها ، وكيف تكون الحال اذا تأملنا هذه الدقائق الدقيقة في وصف البستان الذى يسقى بالسعط وينكته بالخلال وعد اشجاره مائة الا تسعة وتسعين وانهاره خمسون الا تسعة واربعون .

.../...

ان هذه الرسالة اما ان تكون مجرد سخرية ببستان حقيره ، وفي هذه الحالة نرجو القارئ ان يكتفي متسامحا بما قدمنا ، او تكون سخرية لطيفة بالاسلوب الشعري في تصوير الامور فنقدمها الى قارئنا على انها كذلك وفوق كل ذي علم عليهم .

. . .

٤) - رسالة الى البديهي الشاعر -

وهي رسالة (١٤) انشأها الخوارزمي يهزأ بها من ابي الحسن المعروف بالبديهي الشاعر على نحو ما فعل الجاحظ باحمد عبدالوهاب ، والرسالة طويلة تستغرق ١٤ صفحة من كتاب رسائل الخوارزمي .

يبدأ الخوارزمي رسالته بالقول ان غاية الرسالة ليست العتاب لان آلعتاب لا ينفع مع ابي الحسن ، وهو " العين العمياء والاذن الصماء والقلب الذي لا يعرف النقصان الا في ماله ولا يحس بالالم الا في جسمه ولا يجد للنقص مسا ولا للعيب وقعا ، ثم يعتذر عن تنزله للكلام عن ابي الحسن هذا اعتذارا خبيثا ، ويخلص الى التبسط في صفاته واخلاصه .

اول ما يصفه به السفطة يقول :"كأن سوفسطا استخلفك على جحد ما يدرك عيانا ويعرف ايقانا فانت وارثه في الباطل وناصر جهله على كل عاقل وحتى كأن الله انزل عليك قرآن ضلاله وبعث اليك رسول جهاله وقال لك خالف الاجماع وانت على السنة وعاد الصواب وانت في الجنة واوحش الاحرار وانت اصل الحرية باين الناس وهتك منبع الانسانية وانصر اللؤم وانت الكريم وناقض الحكماء وانت الحكيم ".

ويستطرد كاتب الرسالة فيجعل من ابى الحسن رمز الباطل :
" انت العكس الا انه يمشي على رجلين والجور الا انه ينطق بلسان وشفتين والجهل الا انه مخاطب والسعي الا انه مثاب معاقب . لو سئلت عن يحيى بن زكريا لذكرت انه زنى ولو ذكرت في القائم ادعيت انه مضى ولو استخبرت عن ابليس ذكرت انه سجد لادم فلو نظرت في عيسى نفيته عن مريم ولو انشدت شعر امرئ القيس لنسبته الى الافحام ولو ذكر ابو جهل حكمت له بالاسلام ولو

.../...

استحسن كلام مزيد قلت انه ميت الخواطر فاتر النوادر ولو سمعت خطب امير المؤمنين عليه السلام استعيبت بيانه ولو مررت بايوان كسرى استقللت بنيانه ولو .... ولو ... " (١٥)

ويمضي كاتب الرسالة في تعداد الحقائق الواضحة التي يجحدها ابو الحسن ، ثم ينتقل الى وصف ادعائه فيقول : (ونظن) انك من بين (الناس جميعا) الذى خص بالعلم القديم واخبر بالنبأ العظيم - ولو انك زهير لانفت من ان تقول :

واعلم ما في اليوم والامس قبله
ولكنني عن علم ما في غد عمي

وكذلك لو كنت زيادة بن يزيد ما قلت :

اذا ما انتهى علمي تناهيت عنده
اطال فاملي ام تناهى فاقصر

وانك لو سمعت عليا يقول سلوني قبل ان تفقدوني سالته حتى يقول دعوني فقد افحمتموني وانك لو امدت بك الملائكة ما قالت سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا " الخ ...

ويسترسل الخوارزمي فيجرى على لسان ابي الحسن منطقا او شيئا كالمنطق يبرهن به على صدق ادعائه ، " وانك نظرت الى عيب كل ذى صناعة من وراء ستر صفيق حتى عرفت مخاريق المتجمين بكذبهم في الاحكام وغلطهم في حوادث الايام وعرفت اختلاف النحويين بتخاليف الكوفيين والبصريين وانهم لو ابصروا الرمية خرج السهم سديدا ولو عرفوا الطريقة كان المقصد قريبا وان الخلاف دليل على اسلوب المحال وان ليس بعد الحق الا الضلال وعرفت ابطال الاطباء بمناقضة الرومي الهند وتكذيب الفارسي اليوناني وان عيش البدوى فيما فيه موت الحضرى وان الذى يموت على ايديهم من المرضى اضعاف من يعيش ويبقى وعرفت تخبط اللغويين بافتتان لغات القبائل وتباين السن اهل المياه والمنازل فلغة عدنان غير لغة قحطان ولغة خندف غير لغة قيس عيلان .... وعرفت فساد الفلاسفة بادعائهم قدم الطينة وانكارهم ما يعاينونه في انفسهم من الدولة ... وعرفت جهل المهندسين بجهلهم جذر العشرة ... وعرفت حيرة المحدثين بتناقض رواياتهم ... وعرفت شك المفسرين ... ال.. الخ ...

ثم يعود الخوارزمي وكأنه قد شعر ان وصف ابي الحسن بالسفسطة ونعته بالابطال قد يصورانه بصورة الرجل ذي المهارة العقلية ، فاذا هو يستطرد فيقول :

" فلا جزاك الله خيرا لا عن الحق عدوك ولا عن الباطل صديقك . اما الحق فلانك هدمت منارة وطمست اثاره . واما الباطل فلانك ابرزته في معرض الفضيحة حتى هتكت استاره وكشفت عواره ونشرته حتى ظهر مضمره ونصبته حتى ظهر زهوه وانما يقبل الناس من الباطل ما يشبه الحق ويأخذون من الكذب ما يحاكي الصدق . فاما الباطل الذي تبصره العين العمياء وتسمعه الاذن الصماء ويستوى في ابراز شخصه النور والظلماء فانه ينهي عن نفسه وينذر الابصار والبصائر بعيته وينادي بنقص من نطق به فيا من لا يقبله الباطل ولا الحق ولا يناسبه الجور ولا العدل الى ماذا انسبك بعدهما والى اين اذهب بك عنهما رحمك الله " ؟

ويبدل ابو بكر فجأة من لهجة الرسالة فاذا به يدعو ابا الحسن ، في بضعة اسطر ، الى التزام التواضع .

" تواضع بنا رحمك الله تعالى فان التواضع خلق من اخلاق السلف وشبكة من شباك الشرف وتصدق علينا ببشرك فان الله يجزي المتصدقين واحسن فان الله يحب المحسنين ولا ين اخوانك في فعلك وقولك فلو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ".

ثم يمتدح ابو بكر ابا الحسن امتداحا ساخرا : " ولولا اني رحمك الله تعالى لا اقول بالرجعة ولا اذهب مذهب التناسخية لظننت ان جميع ما انطوى من العالم تحول في هيكلك وانحصرت محاسنهم في شخصك ولظننت انك يونس بن مروه ..."

ويرجع الكاتب بصاحبه الى حديث العجب بالنفس والاعتزاز بالذات ، فيقول : " فلقد ... احببت من (نفسك) ما لا يساوي الحب حتى كان كسرى انو شروان حامل غاشيتك وكان قارون وكيل نفقتك وكان بلقيس ذات العرش العظيم دايتك وكان مريم البتول امتك وحتى كان ريح عاد هبت من غضبك وحتى كان العود وجميع الملاهي وضعت لطربك وحتى كان السيف يشتق من صولتك ومضائك وعطارد يستمد من لطفك وذكائك وحتى كان زرقاء اليمامة لم تنظر الا بمقلتك وكان لقمان لم لا ينطق بغير حكمتك وكانك بنيت منارة الاسكندرية من اجر دارك ووسعت ملعب سليمان عليه السلام من بقايا ملعب صحنك ، وكانك علمت زياد السياسة واقدت عبد الحميد الكتابة

.../...

ولقنت يحيى بن خالد الفصاحة والقيت على الحسن البصرى المجنة وعلى الحجاج ابن يوسف الثقفي الهيبة وحتى كأنك زرعت غوطة دمشق وشققت انهار البصرة وهندست كنيسة الرها ... وحتى كأن سد ياجوج وماجوج فيىيديك والامر في خروجهم موكول اليك .... الخ ...".

وينتقل ابو بكر بعد ذلك الى الاعتذار من التقصير في ايفاء ابي الحسن حقه، وينسب اجادته في الرسالة الى الموضوع لا الى براعته، " فهم يحسبون اني اجدت وانما الصدق اجاد ويقدرون اني احسنت وانما قصدى الحق احسن ".

ويتلو ذلك مقطع طويل يستغرق صفحتين من كتاب الرسائل يتألف كله من سلسلة منتظمة من النداآت المتلاحقة التي يقصد بها الهزء بابي الحسن.

" يا غداة الفراق وكتاب الطلاق، يا موت الحبيب وطلعة الرقيب، يا يوم الاربعاء في اخر صفر، ويا لقاء الكابوس في وقت السحر، يا خراجا بلا غلة ودواء بلا علة، يا اثقل من المكتب على الصبيان، يا .... يا كنيف السجن فيالصيف ..... يا افطار الصائم على الخبز البحت ... يا ليل العزبة ووقت العشق والافلاس والغربة ... يا شرب الترنجبين على الريق في تموز ... يا عقب التخمة علىاثر الحجامة في غرفة بغير كوة ... يا دخول الطفيلي بيت المروزى ... يا قرع الغريم الباب ومعه جريدة الحساب .... يا فم من اكل السمك في الشمس ولم يغسل يده ... يا اثقل من جبل ردمي تحته ثلج حولي فوقه عساكر في وسطه قوافل ... يا اثقل من منادمة طفيلي على الندماء مقترح في الغداء والعشاء، مخمش للساقي قاطع على المغنى، يواثب ويزني ... يا جواب الحجاب وعبوس البواب ... يا نظارا الى زوج الام على الريق ... " (١٦)

ثم يعود الكاتب مرة اخرى الى الاعتذار عن التقصير في الوصف، ويستعطف ابا الحسن ان لا يذهب وحده بكل ما في الدنيا من حسن وقوة وجاه وعلم :

" رحمك الله تعالى، دع لليونانية من الحكمة ما تنفق به سوقهم، واترك لبنى العباس من الملك ما تمشي به امورهم، وابق للشمس والقمر من الحسن بمقدار ما يطلعان به ويلوحان فيه، وهب

.. - / ...

للريح العاصف والرعد القاصف من الصوله قدر ما يسمع به صوتها...
وانظر الى النساء من وراء / حجاب ومن خلف برقع والا خرجن من
عشقك عن ستر الله " .

ويخلص من ذلك الى مطالبة ابي الحسن بقضاء بعض الحوائج :
" لي رحمك الله حوائج فان قضيتها كنت قد تسلفت شكري و رضاي ...
قد اتفق الناس على ضياع النسخة الاولى من كتاب العين فامله علينا ،
واجمعوا على ذهاب قراءة ابي بن كعب وعبدالله بن مسعود فاخرجهما الينا
وتخالف الناس في المهدى وشكوا في السفياني وفي الاصفر القحطاني ، فعرفنا
متى يخرجون ... والكيمياء فقد علمت انه انفقت فيه الاموال وتعب له
الرجال ... فما عليك لو علمتناه ، ولغنيت الفقراء ، وزدت الاغنياء
وارحت الناس من الضرب في البلاد ... والزيج الاكبر ، فقد انقطع
وانقرض اهله وهو من مفاخر الروم علينا ومن محاسنهم دوننا فاعمل في
اصلاحه ، ومسجد دمشق ... فاين لنا مثله ، وآل ابي طالب ، قد
علمت انهم مسلوبون حقهم فتقدم الى غلامك الدهر بان يرفع
رايتهم ، والفلك قد زعموا انه خرف فاردد شبابه ... وليس يخفى
عليك تطاول العراق بعبدالله بن خلال الهجرى صديق ابليس فارنا
رحمك الله تعالى من عجائب صنعتك ولطائف فكرتك ... فان ابليس
تلميذ لك تعلم منك ".

ويقول : " ولعلك تنكر قولي خرف الفلك ولولا خرفه ما
كان القمر سماويا وانت ارضي ، ولا كانت الملائكة روحانية وانت بشرى ،
ولا كانت السماء تظل والارض تقل ، وانت اكبر منها قدرا ، واكرم منها
نجرا ، ولا كانت الدنيا تنضم عليك وانت الدنيا ، ولا كنت عند
الناس بعض الورى وانت الورى ... "

وينهي الخوارزمي رسالته بقوله واصفا اياها :

" هذه رحمك الله هدية اهديتها اليك بل هدى من العرائس
جلوتها عليك وما مهرها الا فقدك ولا ثمنها الا بعدك ، فاذا وهبتها فقد
وفيت المهر وارضيت العروس والصهر ... فخذها مباركا لك فيها ،فبئست
العروس ، وزوجها شر منها ... "

وقد لاحظ القارئ ، من غير شك ، الشبه العظيم بين رسالة
الخوارزمي هذه ورسالة الجاحظ في التربيع والتدوير . ويمتد هذا الشبه من

.../...

اد ق الخصائص الفنية والترسلية البحتة الى المواضيع الواحدة التى يثيرها كلا الكاتبين في رسالتيهما .

فواضح ان التشابه عظيم - من الوجهة الفنية - في اسلوب التوازن النثرى ، وفي السجع غير المستمر ، وفي الاشارات التاريخية والعلمية ، وفي الدعاء للقارئ ، وفي الاستطراد من موضوع الى موضوع ، وفي الميل الظاهر الى الاتيان بالطرائف والغرائب ، وفي طريقة الاستفهام الانكارى .

كما ان التشابه عظيم - من وجهة المادة التي تحتويها الرسالتان - في نوع المواضيع التي يدور حولها الكلام ، فهي في كليهما : الاعجاب بالنفس ، والزهو على الغير ، وادعاء العلم ادعاء ، ومخالفة العرف والمنطق بقصد التميز والشهرة .

اما السخر في رسالة الخوارزمي فهو ايضا شبيه بالسخر في رسالة التربيع والتدوير .

ولعل ابرز مظاهره هذا الجو الحافل بالاشارات العلمية والاسماء التاريخية والقضايا الفكرية والفلسفية الذى افتعله ابو بكر في رسالته . فان في مجرد خلق هذا الجو ، بمعرض الكلام عن جهل ابي الحسن ، ما يشكل هزوءا خفيا بالرجل . وما تقول بقطعة المقصود بها فضح سخف ابي حسن هذا ، لا تمر بسطر من سطورها الا ويواجهك اسم تاريخي او واقعة علمية او قضية فكرية ! فمن يحيى الى زكريا الى عيسى الى مريم الى امرئ القيس الى ابي جهل الى ايوان كسرى الى ارم ذات العماد الى الحسين بن علي الى فرعون الى ابن عباس الى التأويل الى التنزيل الى التشبيه الى الاعتزال الى الاحنف بن قيس الى ذى القرنين الى التوحيد الى ابن سريج ... الى مخاريق المنجمين ، الى تخبط اللغويين الى عناء الفلاسفة وشك المفسرين الى ... الى ...

ويكفي ان تحتشد في رسالة واحدة كل هذه الطائفة الضخمة من الاسماء والمواضيع (وقد ذكرنا شيئا يسيرا منها) ، حتى تتسم القطعة بهذا الروح الهازئ غير المباشر الذى نسميه السخر .

ومن السخر كذلك ، هذا الجو من العظمة الذى احاط به ابو بكر صاحبه ابا الحسن ، وقد توسل الى ذلك بوسيلتين : الوسيلة الاولى عباوة عن تعداد طويل للصفات التي يراها ابو الحسن في نفسه ، والوسيلة الثانية عبارة عن دعوة موجهة الى ابي الحسن الى التزام التواضع ، وحل بعض المشاكل التى تعني البشر في غير طائل .

.../...

اما الوسيلة الاولى فظاهرة في امثال هذه الاقوال " كأن كسرى انوشروان حامل غاشيتك ... , كأن المريخ يستقي من صولتك .. كأن نعمان لم ينطق بغير حكمتك ... كان عجائب بني اسرائيل من عجائب صنعك ... كان ... كان ..."

واما الوسيلة الثانية فتراها في كلام كهذا الكلام : " تواضع بنا رحمك الله فان التواضع خلق من اخلاق السلف وشبكة من شباك الشرف وتصدق علينا ببشرك فان الله يجزى المتصدقين".

ونراها كذلك في نظير قوله : " لي رحمك الله حوائج فان قضيتها كنت قد تسلفت شكرى ورضاى ... وقد اتفق الناس على ضياع النسخة الاولى من كتاب العين فامله علينا ، واجمعوا على ذهاب قراءة ابي بن كعب وعبدالله بن مسعود فاخرجهما البنا وتخالف الناس في المهدى وشكوا في السفياني والاصفر القحطاني فعرفنا متى يخرجون . "

كما نراها في قوله : " دع لليونانية من الحكمة ما تنفق به سوقهم واترك لبني العباس من التملك ما تمشي به امورهم وابق للشمس والقمر من الحسن ما يطلعان به ..."

ومن السهل على اى قارئ ان يلحظ ان هذا الجو من العظمة البعيدة عن الواقع، بل المناقضة له ، قد وضع ابا الحسن في موضع حرج ، فاين هو من ذلك كله ، في عين الحقيقة ، وفي عين الخلق ، وفي عين نفسه ؟

فاذا تفطن قارئ الرسالة الى ان الخوارزمي يخاطب ابا الحسن في بعض الاحيان وكانه اله كامل ، ازداد عجبه من هذا السخر الذى لا حد له . افليس هو من خوطب بهذا الكلام : " ما عليك... لو اغنيت الفقراء ، وزدت الاغنياء ، وارحت الناس من الضرب في البلاد والكد والاجتهاد و ... ولولا خرف الدهر ما كان القمر سماويا وانت ارضي ولا كانت الملائكة روحانية وانت سماوى ولا كانت السماء تظل والارض تقل وانت اكبر منها قدرا واكرم منها نجرا ولا كانت الدنيا تتضم عليك وانت الدنيا ولا كنت عند الناس بعض الورى وانت الورى ولا كنا نسميك ونكنيك ذهابا بك وبقدرك عن الاسامي ولكنى ..."

.. ./...

واذا اضفنا الى ما اسلفنا بعض الدقائق اللطيفة في الرسالة ، كمخاطبة الخوارزمي لابي حسن " رحمك الله تعالى " وهو في ذروة التعظيم له تلميحا الى انه من احق الناس بالرحمة ، او كقول الكاتب " انزل (الله) عليك قرآن ضلاله و بعث اليك رسول جهاله " تكبيرا للباطل ورسالة الباطل في عين ابي الحسن ، اذا اضفنا امثال هذه الدقائق الى ما تقدم الحديث عنه ، ولم ننس ذلك المقطع الطريف الذي ينادي به الخوارزمي ابا الحسن بنداءات متلاحقة بشبهه فيها لا يبشر مثله بل باشياء واحوال ومازق ما انزل الله بها من سلطان . اذا ذكرنا ذلك كله واقبلنا على قراءة الرسالة الجميلة بهدوء وصفاء جاز لنا ان نعتبر هذه الرسالة من اروع آيات السخر في الادب العربي القديم . ولعلها اخت رسالة التربيع والتدوير الصغرى . ومن يدري فقد تكون ابنتها غير الشرعية اولدتها قريحة الخوارزمي على اثر غارة من غارات الادباء المعروفة على اثار الكاتب العظيم .

. . .

٥) - رسالة الحلواء *

وهي رسالة انشأها ابو عامر هزوءا باحد الفقهاء ، من اهل النهم والشره . وقد اولع الناس في كل زمن وفي كل قطر بالحديث عن ضعف رجال الدين امام الطعام . والادب الاوربي نفسه مليء بالتندر على هذه الفئة من هذه الزاوية . ويبدو ان هذه الرسالة كانت تحتل مكانا خاصا في نفس منشئها لان ابا عامر يذكر في رسالة التوابع والزوابع انه قرأها على اثنين من جماعة الجان " فاستحسناها وضحكا عليها وقالا (له) : ان لسجعك موضعا (؟) من القلب ومكانا من النفس وقد اعرته من طبعك ، وحلاوة لفظك ، وملاحة سوقك ما ازال انفه ورفع عينه ". (١٧)

تبدأ الرسالة بقوله انه كان مع احد اصدقائه وفيهم فقيه ذو لقم . فما ان مروا بمحل فيه حلوى حتى " استخفه الشره واستبد به الوله ، فدار في ثيابه ، واسال من لعابه حتى وقف بالاكداس ، وخالط غمار الناس ونظر الى الفالوذج فقال : بابي هذا اللمص ، انظروه كانه الفص ، مجاجة الزنابير ، اجريت على شوابير ، وخالطها لباب الحبة فجاءت اعذب من السنة الاحبة ". (١٨)

ثم يستعرض ابو عامر اثر كل نوع من انواع الطعام في نفس الفقيه ، ويستحضر ما قاله الرجل الاكول امام كل صنف من هذه الاصناف

---

* ولد سنة ٣٨٢ من عائلة تولت الوزارة . عرف بشعره الرائع ونثره الجميل . ومنحه ثقل سمعه من التقرب للحكام فعاش لفنه وهواه (ابن بسام ٠ ج ١ ٠ ١٤٣)

يقول ابو عامر :

رأى الخبيص فقال : " بأبي هذا العامي الرخيص ، هذا جليد سماء الرحمة ، تمخضت به فابرزت منه زبد القصة ، يجرح باللحظ ، ويذوب من اللفظ . ثم ابيض ، قالوا بماء البيض . قال : غض من غض ، ما اطيب خلوة الحبيب لولا حضرة الرقيب " .(١٩)

ثم يقول :

" ولمح القبيطاء فصاح : بابي نقرة الفضة البيضاء ، لا ترد عن العضة ، اينار طبخت ام بنور ؟ . فاني اراها كقطع البلور وبلوز عجنت ام بجوز ؟ فاني اراها عين عجين الموز . ومشى اليها وقد عدل صاحبها ارطال نحاسه ، وعلق قسطاسه من ام رأسه ، فقال : رطل بدرهمين ، وانتهشها بالنابين ، فصاح : القارعة ما القارعة هيه ، وبل للمرء من فيه " .

ثم يورد الكاتب رد الفعل الذى احدثه مشهد الزلابية في نفس الفقيه فيقول :

" ورأى الزلابية ، فقال : " ويل لامها الزانية - # ابا حشائي نسجت ، ام من صفاق قلبي الفت ، فاني اجد مكانها من نفسي مكينا ، وحبل هواها على كبدى متينا ، فمن اين وصلت كف طابحها الى باطني فاقتطعها من دواجني . والعزيز الغفار لاطلبنها بالنار " . ومشى فتلمظ له لسان الميزان ، فاجفل يصيح : الثعبان الثعبان " .

اما تمر النشا ، فقد انطلقت الفقيه بالعجب :

" بهيم ، من اين لكم جني نخله مريم . ما انتم الا السحار وما جزاؤكم الا السيف والنار " .

ثم قام صاحبنا يأخذ معا امامه ،" فانبت في صدره العصا فجلس القرفصاء يذرى الدموع ويبدى الخشوع ".

ورقت ضلوع ابى عامر على الفقيه فامر الحلواني " بابتياع ارطال منها ، تجمع انواعها التى انطقته وتحتوى على ضروبها التى اضرعته . " وساروا جميعا الى " مكان خال طيب كوصف المهلبي :

خان تطيب لباغي النسك خلوته   وفيه ستر على الفتاك ان فتكوا

فعبها وجعل يقطع ويبلع ويدحو فاه ويدفع وعيناه تبصان كانهما جمرتان ... حتى التقم جملة جماهيرها واتى على مآخيرها ، ووصل

.../...

خورنقها بديرها ، وكان ابو عامر يردد له عبثا اثناء ذلك : " على رسلك ابا فلان ، البطنة تذهب الفطنة ... "

يتمثل السخر في هذه الرسالة اول ما يتمثل - بما انطق به ابو عامر الفقيه النهم من مدائح طنانة لصنوف الطعام . وقد اجاد في هذا الانطاق ايما اجادة ، واطلعنا بشيء قليل من المبالغة ، وشيء كثير من الطرافة ، على الطريقة التي ينظر بها المنهوم الى متعة الاكل . ولا يستطيع احدنا ان يتمالك عن الضحك ولا عن الرثاء للفقيه المسكين عند قراءة الرسالة .

يرى الفالوذج فيحكم انه اعذب من السنة الاحبة .

ويرى الخبيص فيتذكر متحسرا طيب الخلوة بالحبيب في غيابي الرقيب .

ويرى القبيطاء فتنطقه الرؤية بالحكمة :القارعة ما القارعة . هيه . ويل للمرء من فيه .

ويرى الزلابية فلا يجد ما يطفيء غليله منها سوى شتمها : ويل لامها الزانية ، ابا حشائي نسجت ام صفاق قلبي الفت والعزيز الغفار لاطلبنها بالثار .

ويرى تمر النشا ، فيتراءى له ان طابخها من غير البشر : من اين لكم جنى نخلة مريم ، ما انتم الا السحار وما جزاؤكم الا السيف والنار .

وهذه الطريقة الفنية في الهزء بالفقيه هي السخر بعينه . واى سخر ابلغ من ان يجرى الكاتب على لسان صاحبه كلاما تحسبه بهزاء فيه من نفسه .

بل اى سخر ابلغ من هذا السبب الذي اورده ابوعامر ليفسر به تدخله اخر الامر لابتياع بعض الحلوى للفقيه . قال : " فرقت له ضلوعي وعلمت ان الله فيه غير مضيعي . وقد تجمل الصدقة على ذوى وفر وفي كل ذي كبد رطبة اجر" فاعجب لشراء كهذا الشراء ، المقصود من ورائه اجر السماء .

ولا ينس القارئ انواع الحلوى وضروبها التي ابتاعها ابو عامر لصاحبه . ففي تعيينها شيء غير قليل من الهزء الخفي بالقاضي ، انها على حد تعبير الكاتب نفس " الانواع التي انطقته والضروب التي اضرعته " .

.../...

هذه هي رسالة الحلواء " الهزلية " التي قراها ابن شهيد على شياطين الشعراء والكتاب في عبقر فاستجادوها وشهدوا لصاحبها بالنبوغ. انها رسالة جميلة بلا شك . ولكن حبذا لو قراها ابن شهيد - فيمن قراها عليهم من شياطين الادب - على " زبدة الحقب " صاحب بديع الزمان ، فلعل هذا يقول قول الصاحب ابن عباد الشهيرة هذى بضاعتنا ردت الينا . *

---

* هذه الرسالة شبيهة شبها عظيما بالمقامة البغدادية التي تناولناها في مكان اخر من هذه الرسالة . وقد لاحظ الاستاذ زكي مبارك في كتابه النثر الفني (الجزء الثاني ، ص ٣١٦) ان ابن شهيد قابل بارض الجن " زبدة الحقب " صاحب بديع الزمان وكانت بينهما محاورة .

ملحق بالفصل السادس

" رسالة التوابع والزوابع " *

لم تصلنا هذه القطعة الادبية بمجموعها ، وانما وصلتنا منها بعض فصولها . وهذه الفصول موجودة في كتاب " الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة " لابن بسام " (٢٠) وهي عبارة عن رحلة قام بها ابن شهيد ، برفقة زهير بن نمير - من شجعان الجن - الى ارضهم. وليس في موضوعها ما يوحي بانها تحتوى على عناصر سخرية . ولكن الاطلاع على بعض اجزائها يثبت العكس تماما .

وقد اثرنا ان ندرسها دراسة مستقلة لانها ليست " رسالة "، وان كانت الى هذا الفن اقرب منها الى فن المقامة . ولعل تسميتها قصة / او حكاية هي اصح التسميات .

يبدأ ابن شهيد " رسالة التوابع والزوابع " بالتوجه الى ابي بكر ابن حزم ، يحدثه اولا عن حنينه الباكر الى الادباء وصبوته القديمة الى تأليف الكلام ، ثم يخبره عن ظهور زهير بن نمير عليه وهو يرثي حبيبا له مات ، وان زهيرا هذا اجازه اذ سمعه ، وعلمه ثلاثة ابيات من الشعر يستحضره بواسطتها اذا شاء عونا او طلب انسا. وفي هذا يقول ابن شهيد :

" وكنت ... متى ارتج / علي ، او انقطع بي مسلك او خانني اسلوب انشد الابيات فيمثل الي صاحبي فاسير الى ما ارغب وادرك بقريحتي ما اطلب . وتأكدت صحبتنا وجرت قصص لولا ان يطول الكتاب لذكرت اكثرها ، لكني ذاكر بعضها ."

الى ان يقول :

" تذاكرت يوما مع زهير بن نمير اخبار الخطباء والشعراء وما كان يالفهم من التوابع والزوابع ، وقلت : هل حيلة في لقاء من اتفق منهم.

---

* بين رسالة التوابع والزوابع ورسالة الغفران شبه في القالب الادبي يصح اتخاذه موضوعا شيقا لدراسة خاصة . ومع ان ابا العلاء قد بلغ في سخريته في رسالة الغفران ما لم يبلغه ابن شهيد في توابعه وزوابعه ، الا اننا نستطيع ان نقول ان الرسالتين تنتسبان الى فن ادبي واحد ، ولصاحب التوابع والزوابع فضل السبق التاريخي في هذا الباب . ولا نكاد نجد تفوقا في رسالة المعرى على رسالة الاديب الاندلسي الا من جهة التفاوت بين العقليتين .

.../...

قال حتى استأذن شيخنا . وطار عني ثم انصرف كلمح البصر وقد اذن له ، فقال : حل على متن الجواد ، فصرنا عليه ، وسار بنا كالطائر يجتاب الجو فالجو ويقطع الدو فالدو حتى التمحت ارضا لا كأرضنا ، وشارفت جوا لا كجونا ، متفرع الشجر ، عطر الثمر ، فقال لي : حللت ارض الجن ابا عامر " .

وهنا يخبرنا ابو عامر : ان اول اتصال له باهل وادي الشياطين جرى كما يلي : *

" زهير - بمن تريد ان تبدأ .

ابو عامر - الخطباء اولى بالتقديم . لكني الى الشعراء اشوق .

- فمن تريد منهم .
- صاحب امرئ القيس

فامال (زهير) العنان الى واد من الاودية ذي دوح تتكسر اشجاره وتترنم اطياره ، فصاح : يا عتيبه بن نوفل بسقط اللوى فحومل ، ويوم دارة جلجل ، الا ما عرضت علينا وجهك ، وانشدتنا من شعرك ، وسمعت من الانسي ، وعرفتنا كيف اجازتك له " فظهر لنا فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب ، فقال : حياك الله يا ابا زهير ، وحيا صاحبك . أهذا فتاهم ! قلت : هو هذا واي جمرة يا عتيبة ! فقال لي : انشد ، فقلت : السيد اولى بالانشاد . فانشد صاحب امرئ القيس احدى قصائده ، ورد عليه ابو عامر باخرى . فلما انتهى تأمل عتيبه ثم قال : " اذهب قد اجزتك " .

هذه هي مقابلة ابي عامر لصاحب امرئ القيس . وهي شبيهة بمقابلاته لاصحاب طرفة وابي تمام وقيس بن الحطيم والبحتري وابي نواس والمتنبي والجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان . الا ان الواحدة من هولاء ربما اتسعت وتشعبت فسملت الى جانب التناشد بالشعر والتخاطب بالنثر بعض النصح ، والنقد ، وشيئا من الاحكام الادبية في اثار اهل العصر . اما صاحب ابي القاسم (من معاصري ابن شهيد وخصومه) فقد كانت بينه وبين ابي عامر مناظرة اظهر فيها الاخير تفوقه وتحدى خصمه ايما تحد .

الا ان هذه المقابلات ليست كل شيء في الرسالة . فقد وصف لنا ابن شهيد بالاضافة الى ما تقدم بعض المجالس الادبية التي حضرها هناك . وعرض مناظرة شعرية شجرت بين حمير الجن وبغالها ، وقد كان هو الحكم في المناظرة . كما ذكر جدلا قام بينه وبين احدى اوزات الجن ... مما اضفى على الرسالة شيئا من التنوع وتعدد الافاق .

---

* في راينا ان هذه الرسالة من اصلح الرسائل لان تحول الى مسرحية . وبعض حوارها يكاد لا يحتاج الى تحريف كثير حتى يصبح حوارا مسرحيا .

٠٠٠/٠٠٠

تبرز السخرية في " التوابع والزوابع " في هذه الاشارات الدقيقة المنتشرة هنا وهناك في الرسالة والمتعلقة بشؤون العصر الذى عاش فيه ابن شهيد وببعض الاسماء والاشخاص الذين احفظته عليهم خصومة ما . وليس من الصعب على القارئ المتئد ان يمسك بخيوط هذه السخرية الخفية الناعمة .

فمثلا تلك الجملة اللطيفة التي اجراها على لسان صاحب الجاحظ حين راح يعتذر الى شيطان الاديب الكبير عن اعتماده السجع فيما يكتب بانه قد اعدم في بلده فرسان الكلام ، ودهي بغباوة اهل الزمان " فكان تعليق ابي عينية (صاحب الجاحظ) التعليق الساخر التالي :
" أهذا على تلك المناظر ، وكبر تلك المحابر ، وكمال تلك الطيالس !".

فكأن ابا عامر قد وجد الاسم اللائق بفرسان الكلام في عصره ، فاذا هم - في قوله - : " فرسان المناظر والمحابر والطيالس " .

وثمة في الرسالة اشارة ، بل شرارة اخرى من شرارات السخر ، هي تلك المساجلة التى جرت بينه وبين بغلة ابي عيسى .

قالت : ما ابقت الايام منك ؟

قال : ما ترين .

قالت : شب عمرو عن الطوق ، فما فعل الاحبة بعدى ، اهم على العهد ؟

قال : شب الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتنكرت الخلان ، ومن اخوانك من بلغ الامارة ، وانتهى الى الوزارة !

قالت : (وقد تنفست الصعداء) سقاهم الله سبل العهد وان حالوا عن العهد ، ونسوا ايام الود . بحرمة الادب الا ما اقرأتهم مني السلام " .

قال : كما تأمرين واكثر .

فانظر هذا السخر البارع : بغلة تسأل ابا عامر من احبتها (!) وعن امانتهم للعهد ،فيجيبها ابن شهيد ان من هؤلاء من بلغ الامارة وانتهى الى الوزارة ! فاذا حملته اليهم السلام ، قال كما تأمرين واكثر !

فهل يعد هذا سخر ؟

وما عسى ان ينقل ابو عامر الى هؤلاء الاحبة من وزراء وامراء اكثر من سلام تقريهم اياه اختهم البغلة .

ليست ادرى والله ، ولكن عبقرية ابن شهيد خليقة بان تدرى سر هذا كله واكثر .

... / ...

ويطل السخر كذلك - على الطف ما يكون السخر - من جواب اجاب به ابن شهيد فتى من فتيان الجن اذ ساله هذا : وهل يضير قريحتك او ينقص من بديهتك لو تجافيت لانف الناقة وجرت له ؟ فقال ابو عامر : وهل كان يضير انف الناقة او ينقص من بديهته او يفل شفرة فهمه ان يصبر لي على زلة تمر به في شعر او خطبة ، فلا يهتف بها بين تلاميذه ويجعلها طرمزه من طراميزه .

قد لا يرى القارئ وهلة موضع السخر في هذا الكلام . ولكن ما ان يتذكر المرء ان انف الناقة هو صاحب ابي القاسم ابن الافليلي ، وان ابا قاسم هذا " قد بذ اهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي والضبط لغريب اللغة في الفاظ الاشعار الجاهلية والاسلامية ، والمشاركة في بعض معانيها "(٢٢) ما ان يتذكر المرء ذلك حتى يتبين اية سخرية دقيقة تختفي وراء لفظة طرمزه التى اوردها ابو عامر ، وحتى يدرك ان كاتب الرسالة ما اتى به اللفظة الغريبة العجيبة الا لتكون عينة من عينات السخف " الافليلي " والا لتوحي بطريقة غير مباشرة بكل ما يبعث على الهزء والضحك من جوانب هذه الشخصية اللغوية المتشددة المتزمتة . وقد استطاع ابن شهيد ان يؤدى ، بلفظة واحدة ، من جملة هي الغاية في الجد والرصانة ، جميع ما يتطلع اليه من معاني السخر بابي قاسم . وهذه المقدرة الفنية بعينها .

وفي الرسالة ، عدا ما تقدم بحثه من مظاهر السخر بشوءون العصر الذى عاش فيه ابن شهيد ، مظاهر ساخرة اخرى لا تقل روعة وجمالا عن سواها .

فمن السخر الناعم الجميل هذا التقيد الكامل باداب السلوك الذى لزمه ابو عامر في التعامل مع الجن في ارض الجن .

" قال لي (القائل صاحب امرئ القيس) : انشد .
قلت : السيد اولى الانشاد " .

وفي مكان اخر يستنشده صاحب طرفة فيجيب :
" الزعيم اولى الانشاد " .

ويتكرر مثل هذا الموقف في غير موضع واحد من التوابع والزوابع ، مضفيا على الرسالة جوا رقيقا من الهزء الخفي .

ومن ظواهر السخرية فيالرسالة ما جرى لابن شهيد مع ابي الطمع صاحب البحترى . فهو قد سعى الى لقائه ، مشوقا غاية الشوق ،

٠٠٠/٠٠٠

مرددا : " الف هل . . . انه لمن اساتيذى " . ولكن ما ان انشده احدى قصائده حتى غشي وجه ابي الطبع قطعة من الليل ، وكرّ راجعا دون ان يسلم ، ولما صاح به رفيق ابي عامر الجزته ! قال : اجزته لا بورك فيه من زائر والسخرية في هذه الاجازة واضحة . غير ان براعتها لا تبدو تماما الا بالموازنة بين حمد البحترى لابن شهيد ، وقولة ابن شهيد ، ساعها الى لقائه : الف هل ، انه لمن اساتيذى . فعندئذ ، وعندئذ فقط ، نستطيع ان نتذوق جمال هذا السخر .

ومن لمعات الهزء الدقيق الخفي في الرسالة وصف ابي عامر لظاهر الهيبة والورع التي يتحلى بها الرهبان بارض الشياطين . قال : " واقبلت نحونا الرهابين مشددة بالزنانير . قد قبضت على العكاكيز بيض الحواجب واللحى ، اذا نظروا الى المرء استحيا ، مكثرين للتسبيح عليهم هدى المسيح ". الى هنا لا يبدو للقارئ ان هناك سخرا ، او شيئا كالسخر . ولكن هل يبقى القارئ على رأيه عند معرفته بان المقام هو مقام تفتيش عن ابي نواس السكير . وهل يظل على فكره اذا عرف ان المفتش ينتمي الى دين يرى في معاقرة الخمر جرما اى جرم .

ان هذا الامعان في وصف هيبة الرهبان يخفي - في نظرنا - سخرية ابن شهيد اللاذعة بهذه الفئة من الناس الذين كانوا يغالون في مظاهر الورع والتقوى ولا يترددون في ان يسهلوا للناس طريق معصية الله . الظاهر - من غير شك - جد خالص . ولكن الباطن - فيما نعتقد - هزء محض .

ومن بدائع السخر في الرسالة التي بين يدينا ، الحكم الذى اصدره ابو عامر في قضية حكمه فيها قوم من بغال الجان وحميرها . وقد اتى الحكم في ختام واقعة مفكهة لا بأس من ايرادها .

" قال ابن شهيد : مشيت يوما انا وزهير بارض الجن ايضا نتحرى الفوائد ونعتمد اندية اهل الاداب منهم اذ شرفنا على قرارة غناء ، تفتر عن بركة ماء ، وفيها عانة من حمر الجن وبغالهم قد اصابها اولق فهي تصطك بالحوافر وتنفخ من المناخر ، وقد اشتد . . . ، وعلا شهيقها ونهاقها . فارتعت لذلك فتبسم زهير وقد عرف القصد وقال لي : تهيأ للحكم . فلما لحقت بنا بدأتني بالتفدية وحيتني بالتكنية ، فقلت : ما الخطب ! حمى حماك ايتها العانة ، واخصب مرعاك ! قالت : شعران لحمار وبغل من عشاقنا اختلفنا فيهما ، وقد رضيناك حكما . قلت : حتى اسمع . فتقدمت الي بغلة شهباء ، عليها جلها ومرقعها ، لم تدخل فيما دخلت فيه العانة من سوء العجلة وسخف الحركة ، فقالت : احد الشعرين لبغل من بغالنا وهو :

على كل صب من هواه دليل مقام على حر الجوى ونحول . . .

. . . / . . .

والشعر الاخر لدكين الحمار :

دهيت بهذا الحب منذ هويت
وراثت اراداتي فلست اريت ...

فضحك زهير وتماسكت وقلت للمنشدة : ما هويت . قالت : هو هويت بلغة الحمير . فقلت : والله ان للروث رائحة كريهة ، وقد كان انف الناقة اجدر ان يحكم في هذا الشعر !"

وهكذا نرى ان هذا التحكيم الطريف قد انتهى بحكم اطرف يهزأ فيه ابن شهيد ، بطريقة حاذقة غير مباشرة ، بالبغال والحمير وانف الناقة جميعا .

" ... وبعد ، فلعل القارئ قد احس في ثنايا هذا البحث او في منتهاه بمثل ما احسسنا به ونحن نقرأ رسالة التوابع والزوابع : بشيء من التحسر المؤلم على ما ضاع علينا بضياع بعض اجزائها وفصولها .

....

هامش الفصل السادس

١) - القلقشندى ، صبح الاعشى ، جزء ١٤ صفحة ٣٦٠
٢) - القلقشندى ، صبح الاعشى ، جزء ١٤ صفحة ٣٦٠
٣) - القلقشندى ، صبح الاعشى ، جزء ١٤ صفحة ٣٦٢
٤) - القلقشندى ، صبح الاعشى ، جزء ١٤ صفحة ٣٦٣
٥) - القلقشندى ، صبح الاعشى ، جزء ١٤ صفحة ٣٦٣
٦) - القلقشندى ، صبح الاعشى ، جزء ١٤ صفحة ٣٦٠
٧) - الحصرى ، زهر الاداب ، الجزء الرابع ، ١٠١
٨) - الحصرى ، زهر الاداب ، الجزء الرابع ، ١٠١
٩) - الحصرى ، زهر الاداب ، الجزء الرابع ، ١٠٢
١٠) - الحصرى ، زهر الاداب ، الجزء الرابع ، ١٠٢
١١) - الخوارزمي ابو بكر ، رسائل الخوارزمي ، محمد علي ، مصر ١٨٧٩ ، صفحة ١١
١٢) - الخوارزمي ، رسائل الخوارزمي ، صفحة ١١
١٣) - الخوارزمي ، رسائل الخوارزمي ، صفحة ١١
١٤) - الخوارزمي ، رسائل الخوارزمي ، صفحة ١٨٤
١٥) - الخوارزمي ، رسائل الخوارزمي ، صفحة ١٨٦
١٦) - الخوارزمي ، رسائل الخوارزمي ، صفحة ١٩٤
١٧) - ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ٢٣٠
١٨) - ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ٢٣٠
١٩) - ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ٢٣٢
٢٠) - ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ٢١٠ - ٢٣٨
٢١) - ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ٢٤٢ - ٢٥٢
٢٢) - ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ٢٤٠

======

خاتمـــــــــة

لقد عقدنا الفصل الاول من هذه الرسالة على تحديد السخرية الادبية تحديدا يخرج بها من حيز الغموض والاضطراب . واقصى رجائنا ان نكون قد توصلنا في هذا الفصل الى اعطاء هذه اللفظة السائرة مع بعض الالفاظ ذات العلاقة بها مفاهيم فنية جديدة بالاعتداد . ثم حاولنا في الفصل الثاني ان نبين الاصول الاولى للسخرية الادبية ، فعرضنا لبعض بذورها في الامثال اولا فالقصص الاعرابي البدوى ثانيا ففن النادرة الحضرى ثالثا وعند دراستنا لفن النادرة عرضنا لاصنافها وخصائص السخرية في كل من هذه الاصناف . ثم بحثنا في بعض العوامل الاجتماعية والعنصرية والفكرية التي عملت على انضاج السخر . وانتقلنا من ذلك الى دراسة الجاحظ دراسة نقدية مطولة نسبيا على اساس المفهوم الذي اعتمدناه للسخر . فوجدناه اديب العربية الساخر الذى لم تتعد الاثار التي سبقته حد الوعد به وعدا . وكان بامكاننا ان نقف عند الجاحظ باعتباره ممثل السخر الذى بلغ نضجه . ولكننا لم نفعل لاننا اثرنا ان نرافق السخر بعد الجاحظ في هذين الفنين " المدرسيين " من فنون النثر العربي (فمن المقامة وفن الرسالة) في موسم ازدهارهما في القرن الرابع . وكان ان وجدنا في هذين الفنين التقليديين اثارا خليقة بان تسلك في هذا التراث الادبي الجميل ، تراث السخر العربي ، ومن هذه الاثار رسالة التوابع والزوابع التي توفر بها القالب الادبي الذى ابدع فيه ابو العلاء فيما بعد ايما ابداع . ولولا اعتقادنا بان ابا العلاء لا يمثل ، من الوجهة التاريخية ، اصلا من اصول السخر ، وان كان يمثل ، من الوجهة الفنية ، قمة من قممه ، لولا اعتقادنا هذا لما اجزنا لانفسنا حد الوقوف عند القرن الرابع .

واملنا كل املنا ان نكون قد القينا بعض الضوء على هذه الاصول التاريخية ، ومهدنا السبيل لدراسة التراث الساخر في النثر العربي دراسة اوسع واشمل . هذا مع العلم ان السخر العربي القديم لا يوفي حقه بالبحث فحسب ، بل بالاستلهام والاستيحاء والانفعال ايضا . وانني لاتمثل كثيرا من مقاماتنا وقصصنا ورسائلنا القديمة قصصا عصرية وروايات مسرحية وصورا كاروكاتورية وادبا جميلا فاكاد لا املك منع شفتي عن الابتسام !

فهرست المراجع العربية

الابشيهي ، شهاب الدين احمد ، المستطرف في كل فن مستظرف ، بولاق ، ١٢٩٢
ابن الاثير ، الجندي مجدالدين ، النهاية في غريب الحديث والاثر ، مصر ، ١٣١١
ابن بسام ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٣٩
ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٢٩ ، ١٣٥٨
ابن الجوزي ، اخبار الاذكياء ، مصر ، المطبعة اليمنية ، ١٣٠٦
ابن حزم ، ابو بكر محمد ، طوق الحمامة في الالفة والالاف ، دمشق ، البرهان ، ١٣٤٩
ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، بولاق ، ١٢٧٥
ابن الطقطقي ، الفخري في الاداب السلطانية ، المطبعة الرحمانية ،
ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، بولاق ، ١٢٩٣
ابن عربي ، محاضرة الابرار ومسامرة الاخبار ، مطبعة السعادة ١٣٣٤
ابن قتيبة ، عبدالله بن سالم ، عيون الاخبار ، دار الكتب المصرية ١٩٢٥
ابن النديم ، محمد بن اسحق ، الفهرست ، الرحمانية ، ١٣٤٨
الازدي ، علي بن ظافر ، بدائع البدائه ، بولاق ، ١٢٧٨
الاصبهاني ، ابو الفرج ، الاغاني ، بولاق ، ١٢٨٥ هـ
الاصفهاني ، الراغب ، محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، مصر ، ١٣٤٦
امين ، احمد ، فيض الخاطره لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٢
الامين ، محسن ، اعيان الشيعة ، دمشق ١٩٢٦
البيهقي ، ابراهيم بن محمد ، المحاسن والمساوئ ، طبعة ليبزج التنوخي ، القاضي ،
نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، دمشق ، المفيد ، ١٩٣٠ (١٣١٨)
الثعالبي ، ابو منصور ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، مطبعة الظاهر ، ١٩٠٨
الثعالبي ، ابو منصور ، يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر ، دمشق ١٣٠٢
الجاحظ ، البخلاء ، دار الكتب المصري ، ١٩٤٨
الجاحظ ، البيان والتبيين ، الرحمانية ، ١٩٣٢
الجاحظ ، الحيوان ، مطبعة التقدم ، ١٩٠٦
الجاحظ ، الحيوان ، رسائل الجاحظ ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٣٣
الجاحظ ، الحيوان ، مجموعة رسائل الجاحظ ، مطبعة التقدم ، ١٣٢٤
جبري ، شفيق ، الجاحظ معلم العقل والروح ، دار المعارف المصرية ، ١٩٤٨
حاجي خليفه ، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، استنبول ، ١٣٦٠
حسين ، طه ، فصول في الادب والنقد ، مصر ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٥
حسين ، طه ، نقد النثر ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٣٢ (نشره عبدالحميد العبادي)
الحصري ، ابو اسحق القيرواني ، زهر الاداب وثمر الالباب ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٥
الحمصي ، نعيم ، تاريخ فكرة اعجاز القرآن ، المشرق ، مجلد ٢٧
الحموي ، بن حجة ، ثمرات الاوراق في المحاضرات ، المطبعة الوهبية ١٣٠٠
الحموي ، ياقوت ، معجم الادباء ، القاهرة ، ١٩٠٩
الخوارزمي ، ابو بكر ، رسائل الخوارزمي ، مطبعة محمد علي ١٨٧٩

٠٠٠/٠٠٠

الزبيدى ، محمد بن محمد الحسيني ، تاج العروس من جواهر القاموس ، مصر ، ١٣٠٦
الزبخشرى ، محمود بن عمر ، اساس البلاغة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٢
الصقلبي ، ابن ظفر ، انباء نجباء الابناء ، مصر ، مطبعة التقدم (؟)
الضبي ، المفضل بن محمد ، امثال العرب ، مطبعة الجوائب القسطنطينية ١٣٠٠
الطبرى ، ابن جرير ، تاريخ الامم والملوك ، المطبعة الحسينية ١٣١١
فريحه ، انيس ، الامثال ، مجلة الابحاث السنة الثالثة
القالي ، ابو علي ، كتاب الامالي ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦
القلقشندى ، ابو العباس احمد ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٢
الكتبي ، محمد بن شاكر ، فوات الوفيات ، بولاق ، ١٢٧٣
كرد علي ، محمد ، امراء البيان العربي ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٣٧
مبارك ، النثر الفني في القرآن الرابع ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٤

محمد احمد فهمي ، المشرع من المجمع او تهذيب مجمع الامثال ، مصر ، ١٩٤٩
المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المطبعة الازهرية ، ١٣٠٣
المقدسي انيس تطور الاساليب النثرية ، بيروت ، سركيس ، ١٩٣٥
المقرى ، نفح الطيب من الغصن الاندلسي الرطيب ، طبع ليدن
المرصفي ، حسين بن علي ، رغبة الامل من كتاب الكامل ، مصر ، مطبعة النهضة ، ١٩٢٧
مندور محمد ، في الميزان الجديد ، مطبعة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٤
الميداني ، ابو الفضل احمد ، مجمع الامثال ، المطبعة الخيرية ، مصر ، ١٣١٠
النويرى ، شهاب الدين ، نهاية الارب في فنون الادب ، دار الكتب المصرية ، ١٣٣٤
الوطواط ابو اسحق ، غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة ، بولاق ، ١٢٨٤
الهمذاني ، بديع الزمان ، مقامات الهمذاني ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٣٢ .

========

فهرســـت المارجـــع الاجنبيـــة

Badger, J.P. An Arabic English, Lexion, London; Paul 1881

Britt. S.H. Social Psychology & Modern Life, N.Y. Farrar, 1944

Brockelman, Karl Geschichte Der Arabishen Litterature, Leiden 1937

Dougall mc. Outline of Psychology, Boston: john Luee, 1926

Eggar, Essai sur l'histoire de la Critique, chez les Grecs, Paris; 1886

Encyclopedia Britanica, copyright 1951

Encyclopedia of Islam, London: 1927

France Anatole, La vie Litteraire, Paris: Levy, 1944

Guidi, I. Tables Alphabétiques du Kitab Al'Agani Leide : 1900

Lane, E.W. مد القاموس London; 1863

Mallarme, S. Devagations, Paris: Fasquelles 1946

Poizat, Le Symbolisme, Paris S.D;

السخرية في النثر العربي
من الجاهلية حتى القرن الرابع

جوبهت في مستهل عملي على تحضير هذه الرسالة بفقدان المصطلحات الفنية العربية التي لا بد منها لدراسة الموضوع دراسة دقيقة و مجدية . فلم يكن لنا غنى عن ان نبدأ بتذليل هذه الصعوبة فعقدنا الفصل الاول من هذه الرسالة على تحديد السخرية الادبية تحديدا يخرج بها من حيز الغموض و الاضطراب . و اقصى رجائنا ان نكون قد توصلنا في هذا الفصل الى اعطاء هذه اللفظة السائرة مع بعض الالفاظ ذات العلاقة بها مفاهيم فنية جديدة بالاعتماد . ثم حاولنا في الفصل الثاني ان نبين الاصول الاولى للسخرية الادبية ، فعرضنا لبعض بذورها في الامثال اولا فالقصص الاعرابي البدوي ثانيا ففن النادرة الحضرى ثالثا . و قد تناولنا عند دراستنا فن النادرة النوادر المتعلقة بالطفيليين ثم ذوى الشذوذ العقلي ثم البخلاء ، و اظهرنا ان النادرة تمتاز عند الفئة الاولى بالاستهانة بالقواعد العامة و المثل المتفق عليها ، و تمتاز عند الثانية بالعطف و المعذرة (و لا سيما بالنسبة الى عقلاء المجانين) و تمتاز عند الثالثة بالاعتماد على المنطق اعتمادا كبيرا . ثم بحثنا في بعض العوامل الاجتماعية و العنصرية و الفكرية التي عملت على انضاج السخر فكشفنا عن اثر التقدم

في الاساليب النثرية و التنوع في الحياة الاسلامية و روح الشك الفلسفي و الشعوبية في هذا النضج . و انتقلنا من ذلك الى دراسة الجاحظ دراسة نقدية مطولة نسبيا على اساس المفهوم الذى اعتمدناه للسخر ، فوجدناه اديب العربية الساخر الذى لم تتعد الاثار التي سبقته حد الوعد به وعدا . و كان بامكاننا ان نقف عند الجاحظ باعتباره ممثل السخر الذى بلغ نضجه . و لكننا لم نفعل لاننا اثرنا ان نرافق السخر بعد الجاحظ في هذين الفنين " المدرسيين " من فنون النثر العربي (فن المقامة و فن الرسالة) في موسم ازدهارهما في القرن الرابع . و كان ان وجدنا في هذين الفنين التقليديين آثارا خليقة بان تسلك في هذا التراث الادبي الجميل ، تراث السخر العربي ،و من هذه الآثار رسالة التوابع و الزوابع التي تؤذن بها القالب الادبي الذى ابدع فيه ابو العلاء فيما بعد ايما ابداع . و لولا اعتقادنا بان ابا العلاء لا يمثل ،من الوجهة التاريخية اصلا من اصول السخر ، و ان كان يمثل ، من الوجهة الفنية ، قمة من قممه، لولا اعتقادنا هذا لما جوزنا لانفسنا حد الوقوف عند القرن الرابع.

و يلاحظ القارئ بقراءته الرسالة التي كتبنا او اطلاعه على موادها ان الاديب الوحيد الذى درسناه على انه اديب ساخر بكل ما في الكلمة من معنى هو الجاحظ . و انصرفنا في سائر فصول الرسالة الى

دراسة الفن الساخر نفسه ، اكثر من انصرافنا الى دراسة اصحابه . و ذلك اعتقادا منا ان لصفة الاديب الساخر شروطا غير متوفرة في غير الجاحظ .

و املنا كل املنا ان نكون قد القينا بعض الضوء على هذه الاصول التاريخية ، و مهدنا السبيل لدراسة التراث الساخر في النثر العربي دراسة اوسع و اشمل . هذا مع العلم ان السخر العربي القديم لا يوفي حقه بالبحث فحسب ، بل بالاستلهام و الاستيحاء و الانفعال ايضا . و انني لأتمثل كثيرا من مقاماتنا و قصصنا و رسائلنا القديمة قصصا مصورة و روايات مسرحية كاريكاتورية و ادبا جميلا فأكاد لا املك منع شفتي عن الابتسام .

منح الصلح

نيسان ١٩٥٣